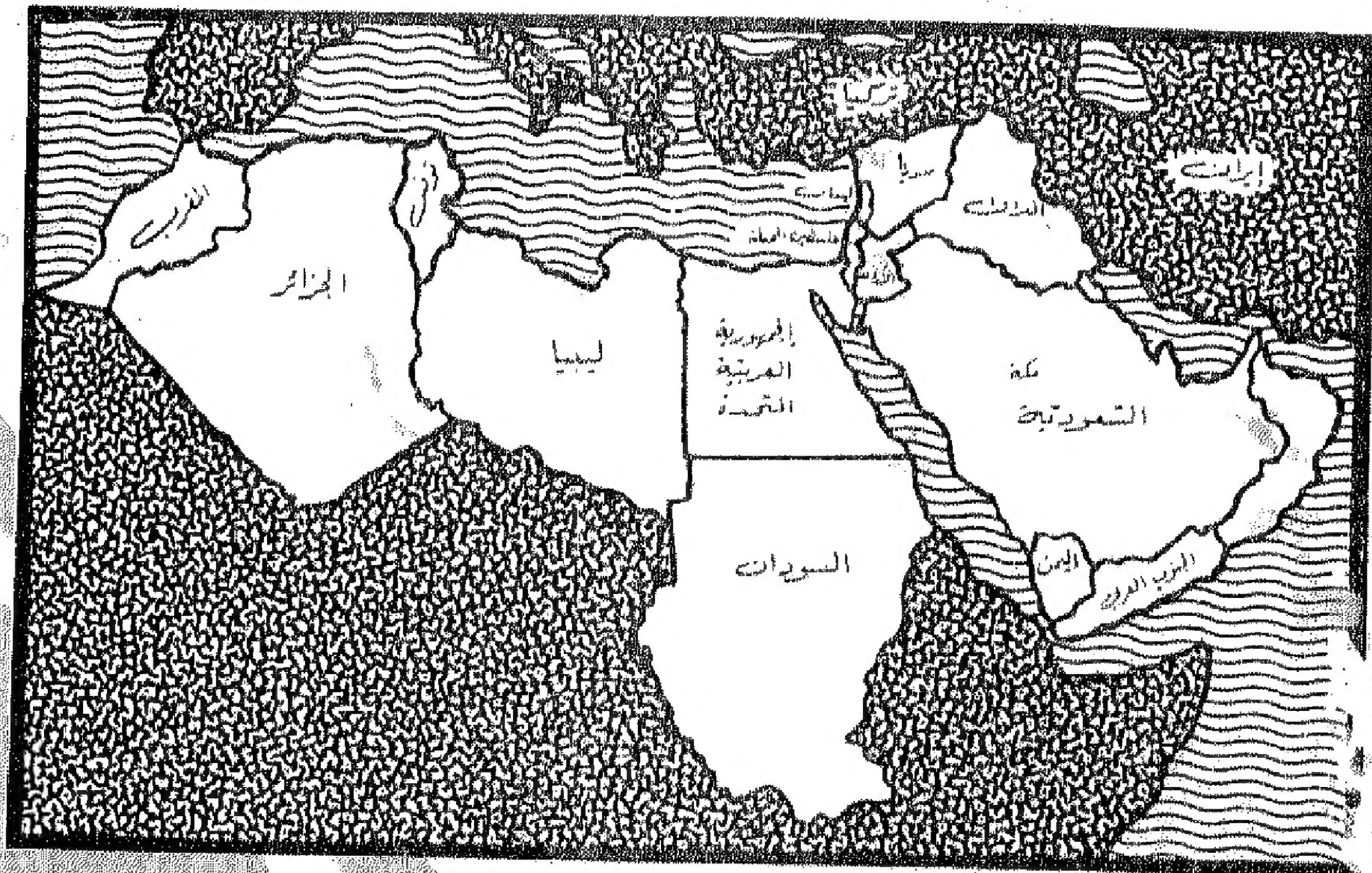
اقرأ

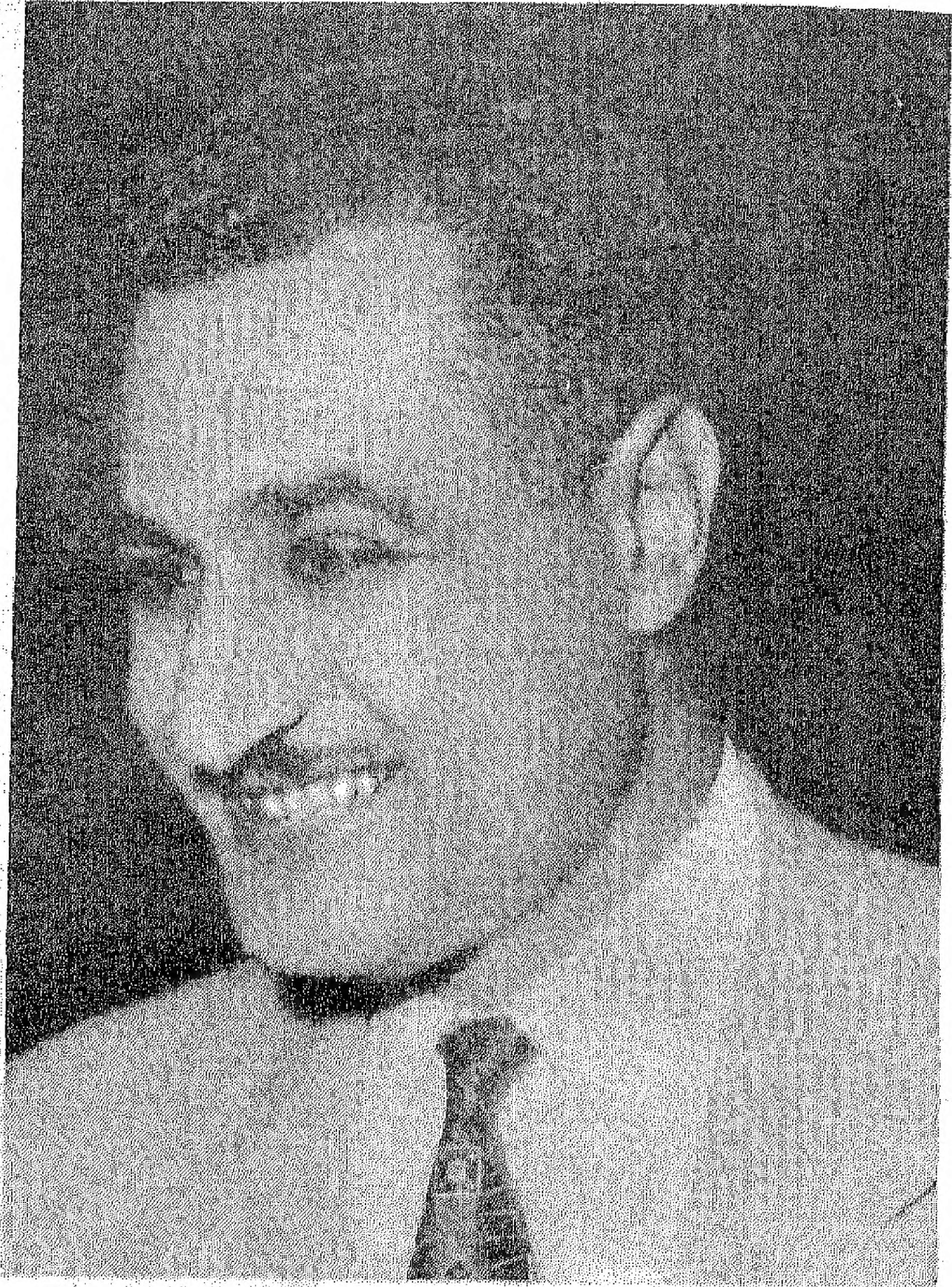
عروبتنا



محمود كامل

دار المعارف بمصر

٥ قروش ج. ع. م.	١٠٠ مليم في ليبيا	١,٠٠ ديناراً في الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً في العراق والأردن	١٠٠ فرنكاً في المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً في الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً في السودان	١٢٥ مليماً في تونس	



الرئيس جمال عبد الناصر



عبد الرحمن الكواكبي

عروبتنا

محمود كامل

عروبتنا

اقرأ ٢٦١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٦١ – سبتمبر ١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر: دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

كلمة المؤلف

العرب هم الجماعة الإنسانية التى تعيش فى المنطقة الممتدة من المحيط الهندى وخط الاستواء جنوباً والخليج العربى وإيران شرقاً وجبال طوروس وساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبى شمالا والمحيط الأطلسى غرباً، وهى مساحة توازى مساحة الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك معاً، ولكنها — لاعتبارات مفتعلة — مقسمة إلى نحو أربعين من الجمهوريات والملكيات والإمارات والسلطنات والمشيخات والمحميات، ومع ذلك فإن الأراضى التى عاش عليها هؤلاء العرب منذ آلاف السنين متلاصقة لا تكاد تفصل بينها حواجز جغرافية، وقد ربطت بينهم منذ فجر التاريخ وشائج من وحدة الثقافة والمصالح الاقتصادية، وجمعت بينهم أشكال مختلفة من الوحدة السياسية، بل إن هذه المنطقة أو الجزء الأكبر منها الذى كان له دور فى الشئون الدولية قد بدا فى أكثر من عهد من عهود التاريخ كدولة واحدة.

وأقدم ذكر للعرب — بهذا الاسم — ثابت فى نقش يعود إلى الملك الأشورى شلمنصر الثالث الذى أراد فى عام ٨٥٤ ق.م أن يضم منطقة دمشق إلى دولته أى العراق فتضمن هذا النقش ذكر الشيخ «العربى» حليف ملك «آرام» أى دمشق، كما ذكر هيرودوتس (٤٨٤ — ٤٢٥ ق.م) أى منذ نحو ألفين وخمسمائة عام أن الأرض العربية هى التى تقع فى أقصى الجنوب.

وقد استخدم هؤلاء العرب فى الكتابة « خطاً » يذهب علماء اللغات إلى أن مصدره الأبجدية السينائية التى عثر على نقوش بها ترجع إلى عام ١٨٥٠ ق.م وهى أبجدية نقلت فكرة التدوين عن الهيروغليفية وتطورت إلى خط السبئيين الذين نشأت دولتهم فى عام ١٣٠٠ ق.م وانتقل هذا الخط إلى مصر فعثر فى الجيزة على كتابة به تعود إلى عهد بطليموس بن بطليموس فى القرن الثالث قبل الميلاد — كما أن هذه الأبجدية السينائية هى أصل الأبجدية الفينيقية التى وجدت نقوش لها تعود إلى عام ٧٠٠ ق.م كما ذكرنا ، وإن كان هناك رأى يذهب إلى أن « المسند » الحميرى مأخوذ من الأبجدية الفينيقية لا من الأبجدية السينائية رأساً . وفى جميع هذه العصور الموغلة فى القدم ظلت هذه المجموعة الإنسانية تتكلم لغة تتضمن عناصر مشتركة سامية وإن اختلفت لهجاتها ، وتكتب خطاً يعبر عن معانى هذه اللغة سواء بالصور فى مصر أو بالخط المسمارى والأختام الأسطوانية فى العهد البابلى بالعراق ، أو بالحروف بعد تطوير الصور الهيروغليفية إليها كما فى الأبجدية السينائية التى استخدمها العمال العرب فى شبه جزيرة سيناء ، أو بالحروف العربية العادية بعد أن أرست الأبجدية الفينيقية السامية قواعدها . وعلى خلاف ما قد يخطر ببال الكثيرين استقر علميا أن اللغة المصرية القديمة — كما يقرر الأستاذان موريه ودافى — بها أوجه شبه رئيسية تبدو واضحة بينها وبين اللغات السامية فى قواعد النحو والصرف والضمير الشخصى وتصريف الأفعال وإنهاء المؤنث المفرد والجمع والمثنى بنفس الطريقة وأمثلة عديدة أخرى . وقد انتهى « موريه » و « دافى »

إلى أن لغة المصريين القدماء وإن احتوت على عنصر إفريقى من الشمال ومن الجنوب ، أى من لغة بربر شمال إفريقيا ولغة الإفريقيين الجنوبيين ، فإنها تحتوى — فوق كل شيء — على عنصر سامى ، وهذا يفسر التطور التاريخى الذى مرت به الأبجدية العربية التى يستخدمها العرب الآن وهم الذين ينتمون إلى :

١ — الجمهورية العربية المتحدة	وسكانها	٢٦,٥٩٣,٠٠٠	نسمة
٢ — جمهورية السودان	وسكانها	١٢,٤٧٠,٠٠٠	»
٣ — المملكة الليبية المتحدة	وسكانها	١,٢٤٤,٠٠٠	»
٤ — الجمهورية التونسية	وسكانها	٤,٢٥٤,٠٠٠	»
٥ — الجمهورية الجزائرية	وسكانها	١١,٠٢٠,٠٠٠	»
٦ — المملكة المغربية	وسكانها	١١,٩٢٥,٠٠٠	»
٧ — المملكة العربية السعودية	وسكانها	٨,٠٠٠,٠٠٠	»
٨ — الجمهورية العربية اليمنية	وسكانها	٥,٠٠٠,٠٠٠	»
٩ — الجمهورية العراقية	وسكانها	٧,٢٦٣,٠٠٠	»
١٠ — المملكة الهاشمية الأردنية	وسكانها	١,٦٩٠,٠٠٠	»
١١ — الجمهورية اللبنانية	وسكانها	١,٨٢٢,٠٠٠	»
١٢ — الجمهورية العربية السورية	وسكانها	٥,٠٦٧,٠٠٠	»
١٣ — دولة الكويت	وسكانها	٣٢٢,٠٠٠	»

وهذه الدول جميعها أعضاء فى الأمم المتحدة كما أنها أعضاء فى جامعة الدول العربية .

١٤ — جمهورية موريتانيا الإسلامية وسكانها ١,٠٠٠,٠٠٠ نسمة

١٥ — اتحاد الجنوب العربى تحت الحماية البريطانية ويضم مستعمرة عدن وثمانى عشرة وحدة من السلطنات والمشيخات والإمارات التى كانت تابعة لمحمية عدن الغربية ومنها العوادل ويافع السفلى وأهل فضل وبيحان والضالع والعوالق العليا ولحج والعوالق السفلى ودثينة ، وسكان الاتحاد ٦٦٠,٠٠٠ نسمة، وسكان مستعمرة عدن التى انضمت إلى الاتحاد ١٥٨,٠٠٠ نسمة، وتتبعها جزيرة بريم .

١٦ — محمية عدن الشرقية وهى سلطنات القعيطى والواحدى والمهرة والكثيرى ومشيخات بير على وعرقه وحوره وقشن وسقطو .

١٧ — جزر البحرين ، إمارة تحت الحماية البريطانية ، وسكانها ١٥٦,٠٠٠

١٨ — قطر ، إمارة تحت الحماية البريطانية وسكانها ٤٥,٠٠٠

١٩ — مسقط وعمان ، سلطنة تحت الحماية البريطانية ، وسكانها ٥٥٠,٠٠٠

٢٠ — مشيخات ساحل المهادنة على الخليج العربى : أبو ظبى ، دبى ، الشارقة وكلبة ، رأس الخيمة ، أم القيوين ، عجمان ، الفجيرة ، وسكانها ٨٦,٠٠٠ نسمة ، تحت الحماية البريطانية .

٢١ — سبتة ومليلا وسكانها ١٤٣,٠٠٠ نسمة ، وأفنى وسكانها ٣٨,٠٠٠ نسمة ، والصحراء الإسبانية وتشمل المستعمرتين السابقتين ريوده أورو والساقية الحمراء وسكانها ٣٦,٠٠٠ نسمة ، وكل هذه الأراضى العربية تعدها إسبانيا مقاطعات إسبانية .

وهذه الجماعة الإنسانية التى تسكن الشرق العربى بحدوده الحالية

قد حققوا وحدة هذا الشرق عدة مرات فى التاريخ ، حققوها فى الفترة بين عامى ١٥٠٠ و ١٢٥٠ ق.م فدامت نحو قرنين ونصف قرن، ثم حققوها مرة ثانية فى الفترة بين عامى ٦٦٨ و ٥٣٩ ق.م فدامت نحو قرن وربع قرن ، وبعد أن اكتملت مقومات الوحدة الكبرى وذابت الفوارق الفرعية التى كانت تعترض إبرازها تحققت بإنشاء الدولة العربية الكبرى فى ثلاث وستين سنة بين عامى ٦٤٢ و ٧٠٦، واستطاعت هذه الدولة أن تقضى على أسطورة الدولة الرومانية الشرقية أى بيزنطة إلى حد أن وصف أوجست بارى هذا النصر العربى المذهل بأن « العرب تخلصوا من بيزنطة وخسرت بيزنطة بعض أجمل ولاياتها وأغناها، ويلوح أن عزتها قد ألغيت وأن روحها قد ضعفت ، وخسرت — تحت ما تعانى من غارات متكررة — إيمانها الوحيد الذى يقوم عندها مقام وطنية الرومان، أى إيمانها بنصرها »، ورسخت قواعد الوحدة العربية الكبرى على أساس الدين الجديد وتأثرت جميع الأمم التى اتصلت بالعرب بثقافتهم دون أن تقوى على التأثير فيهم .

ولعل ما يفسر يسر الاندماج التام الذى تحقق بين العرب القادمين من الشرق وبربر شمال إفريقيا هو ما استقر — كرأى شائع بين علماء اللغات — من أن حروف الهجاء الليبية ترجع إلى أصل فينيقى سامى كما يقرر « هاليفى » فى كتابه « أصل الأبجدية الليبية » ومن أن هذه الأبجدية الليبية — فى رأى آخر — تتصل بأبجدية أهل ثمود فى الجزيرة العربية .

وهؤلاء العرب هم الذين انتفض إحساسهم بكيانهم القومى وماضيهم التاريخى فى فترات متعاقبة من فترات هذا التاريخ عقب تحقيق الوحدة العربية الكبرى تبينوا فيها أن هناك أكثر من عامل يسوّغ وحدتهم — بشكل أو بآخر — ويفرض حتمية هذه الوحدة ، وهداهم وعيهم القومى فى بادئ الأمر إلى أن تتخذ هذه الوحدة شكل وحدة إسلامية أو حركة من حركات التحرر الإسلامى ، ولا شك أن دعوة تقى الدين أحمد بن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » الذى كتبه فى أواخر القرن الثالث عشر إنما كان صرخة فى سبيل هذه الوحدة ، فقد تضمنت هذه الدعوة تنقية الدين من البدع والغلو ، وتوحيد الأحكام الدينية وأن وحدة الجماعة الإسلامية تتضمن استخدام لغة واحدة ، وقد تحمس ابن تيمية للغة العربية لغة القرآن و « شعار الأمة » وأشار إلى خطة المسلمين الأوائل عندما نشروا هذه اللغة فى مناطق كانت تتكلم اليونانية والفارسية والبربرية .

وهذا التضامن الإسلامى بين أفراد الأمة الذى قامت عليه فكرة الدولة الإسلامية على اختلاف المناطق الجغرافية التى تقع فيها أراضيها والأجناس التى ينتمى إليها مواطنوها ، بل اللغات التى يتكلمونها ، والجنسيات السياسية أحياناً وإن تضمنت الدعوة إليها عد اللغة العربية شعاراً للأمة ؛ هذا التضامن الإسلامى كان يمثل — بالتعبير القانونى الحديث — مبدأ من مبادئ القانون العام الداخلى الذى ينظم علاقة المحكوم بالحاكم والمواطن بالدولة التى ينتمى إلى جنسيتها ، وكان يتبلور بوضوح فى رابطة الولاء المشترك بين المسلمين جميعاً على اختلاف جنسياتهم السياسية ولغاتهم

وأجناسهم نحو رمز واحد أو جهاز أعلى من الدول الإسلامية Supra-étatique هو « الخلافة » . ولما بدأت الفرقة بين العرب بانتزاع الأدارسة الشيعة للمغرب (مراكش) والجزائر بعد عام ٧٨٩، وانتزاع الفاطميين الشيعة لتونس بعد عام ٩٠٩، ثم سقوط القاهرة أمام المعز لدين الله الفاطمي في عام ٩٦٩، وبالتالي تعدد الخلفاء أو رؤساء الدول إذا أردنا تقرير الواقع تاريخيا وإن اختلف الفقهاء في جواز هذا التعدد نظريا — ظل هؤلاء العرب المسلمون — برغم تعدد الجنسيات السياسية — ينطوون تحت لواء جنسية « روحية » واحدة هي الإسلام . ولما زال نفوذ رؤساء الدول الشيعة بحكم الأيوبيين لمصر بعد عام ١١٦٩ استعادت الخلافة — كجهاز أعلى من الدول الإسلامية على اختلافها — دورها كرمز تتبلور حوله الجنسية « الروحية » الإسلامية وإن لم يبد هذا الرمز بما كان له من روعة في صدر الإسلام بسبب تعدد السلطات السياسية التي كانت تحكم الشرق العربي خاصة والبلاد التي فتحها المسلمون عامة ، وظل هذا التمزق حتى عام ١٢٥٨ عندما سقطت بغداد أمام جيوش التتار وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله بن المستنصر ، وقد ظلت الخلافة شاغرة ثلاثة أعوام إلى أن بويع المستنصر بالله — وهو عم المستعصم بالله — بالخلافة في عام ١٢٦١ واتخذت القاهرة عاصمة للخلافة العباسية حتى عام ١٥١٧ عندما سقطت أمام السلطان سليم ونقل المتوكل آخر الخلفاء العباسيين إلى الآستانة وانتقلت الخلافة إلى سلاطين آل عثمان ، وقد استعادت الخلافة — بسبب نفوذ الدولة العثمانية واتساع فتوحاتها — هيبتها

« كجهاز فوق الدول » الإسلامية وظل الشرق العربى بأكمله - فيما عدا المغرب (مراكش) خاضعاً للسيادة العثمانية نحو أربعة قرون كانت فيها هذه المجموعة الإنسانية التى عاشت منذ آلاف السنين على أرض هذا الشرق والتى تتكلم العربية تجمعها وحدة الجنسية السياسية كما كانت تربطها فى نفس الوقت بباقى الشعوب الإسلامية وحدة الجنسية « الروحية » ووحدة الولاء المشترك لذلك الجهاز الذى يعلو على الدول الإسلامية . وهذه الدعوة إلى التحرر الإسلامى أو الوحدة الإسلامية عن طريق التضامن الإسلامى التى دعا إليها ابن تيمية هى التى تابع الدعوة إليها - بشكل أو بآخر - محمد بن عبد الوهاب فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ومحمد بن سعود فى النصف الثانى من هذا القرن ومحمد بن على السنوسى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وجمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده فى النصف الثانى من هذا القرن ، كما سنحاول إيضاحه فى القسم الأول من هذا الكتاب .

فلما انتفضت دولة الخلافة وهى تركيا على فكرة التضامن الإسلامى بالترويج لفكرة الوحدة الطورانية أى الفكرة التى تستند إلى « الجنس » أو « العنصر » كوحدة دون نظر إلى أى اعتبار آخر فى أوائل القرن العشرين لتتخذت فكرة الوحدة العربية لدى العرب اتجاهاً آخر يستند إلى وحدة التاريخ والثقافة واللغة والكفاح فى سبيل مصير تحررى مشترك من السيادة العثمانية ، حتى إذا ما بدأت تظهر الدول العربية المستقلة فى أسرة الدول وضح جليا أن عروبة هذه الدول أصبحت قاعدة من قواعد قانون دولى

عربى ينظم علاقات الواحدة منها بالأخرى، كما ظلت هذه الدول – باعتبار أن غالبيتها العظمى من المسلمين – تحتفظ بفكرة التضامن الإسلامى كقاعدة أخرى من قواعد قانون دولى عام إسلامى ينظم علاقاتها بالدول الإسلامية عربية كانت أو غير عربية لا كقاعدة قانون عام داخلى ينظم ولاء العرب المسلمين كمواطنين ينتمون إلى جنسية « روحية » نحو ذلك الجهاز الذى كان يعلو على الدول الإسلامية المختلفة كما سنعود إلى توضيحه ، ولما بدأت الدول العربية المستقلة تنظم علاقاتها الدولية بعضها بالبعض الآخر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى برزت « العروبة » فى المعاهدات التى نظمت تلك العلاقات وتركت طابعها كعقيدة موجبة موجهة على هذه المعاهدات ، ثم أخذت « العروبة » – فى مجال الدعوة النظرية التى روج لها المفكرون – تتأرجح بين الوحدة الشاملة التى تجمع الدول العربية كلها فى دولة واحدة وبين الدولة الاتحادية « الفيدرالية » أو اتحاد الدول « الكونفيدرالية » حتى وقع بروتوكول جامعة الدول العربية فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤ فاستقرت فكرة « العروبة » بأن أصبحت قاعدة « مكتوبة » من قواعد القانون العام العربى بعد أن كانت مجرد إحساس قومى مشترك ووعى عام بين العرب جميعاً على اختلاف أديانهم وذلك بالنص فى دساتير هذه الدول العربية على أنها دول عربية وعلى أن شعوبها أجزاء من الأمة العربية .

ولا شك أن التعبير الحاسم عن نضوج « العروبة » وتبلورها وصهرها على نار التجارب فى الخمسينات من هذا القرن الذى نعيش فيه هو

ما قرره الميثاق من :

« إن الأمة العربية لم تعد فى حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها . لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربى ذاته، ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل ؛ ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير والوجدان ، ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التى تصنع وحدة المستقبل والمصير » .

الفصل الأول

وحدة التاريخ

هؤلاء العرب ــ كما ذهب المتوفرون على تاريخهم ــ هم ثمرة الهجرات البشرية التى عبرت البحر الأبيض المتوسط على البرازخ التى كانت تصل فى العصرين الحجرى القديم والحديث شمال إفريقيا بجنوب أوربا عن طريق جبل طارق وصقلية وقد تحولوا إلى ذلك الجنس المستكمل لقوامه الخاص فى خلال سبعة آلاف العام الأخيرة من تاريخ العالم أى منذ الفترة التى تسمى عصر ما قبل الأسرات Predynastic، وهذا الإنسان الذى عاش فى هذه المنطقة التى تتكلم العربية من ذلك العهد البعيد كان يعيش فيها أيضا فى الفترة اللاحقة لانقضاء العصر الجليدى عقب الطور الأخير من هذا العصر الذى يسميه « بنش » Pench بطور ورم الجليدى Wurm Ice Phase وهو طور انحصر فيه الجليد نهائيا ويقدرون مدته بأنه كان منذ أقل من عشرة آلاف سنة، ويذهب العلماء إلى أنه فى هذه الفترة « كانت الصحراء الكبرى وبلاد العرب فيما يظهر تجودهما الأمطار فى الشتاء ويظهر فيهما الكلأ . . . ومن الفروض الوقتية المفيدة القول بظهور الإنسان الحديث فى أثناء هذا الطور من البرد وفى وسط هذه المراعي الواقعة بين ساحل الصحراء الكبرى على المحيط الأطلسى وبين

جبال فارس (١) .

وكان المعتقد أن العصر الحجرى القديم الأعلى الذى يعود إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد يمثل أول دور ظهر فيه الإنسان العاقل ولكن تبين أخيراً أن من الجائز أن يكون ظهور هذا النوع من الإنسان قد سبق ذلك فقد اتضح من الحفائر العميقة فى شمال الدلتا وجود أوان خزفية وطوب مصنوع ، كما وجدت جمجمة فى دمياط على عمق عشرين أو ثلاثين متراً ، وبناء على التقديرات المعقولة يكون أولئك البناؤون قد عاشوا هناك من ستة عشر ألف سنة (٢) .

ولما كانت الحفريات فى شبه الجزيرة العربية لم تسفر حتى الآن عن أية آثار بشرية أقدم عهداً من هذا العصر الذى كشفت عنه الحفريات فى وادى النيل فإن العلماء المتوفرين على دراسة تاريخ العرب قد تساءلوا : هل نشأ الجنس العربى فى شمال إفريقيا ثم هاجر إلى شبه الجزيرة العربية ، وعلى وجه أدق إلى جنوب شبه الجزيرة العربية فأنشأ دويلات الجنوب وهى دويلات المعينيين والقطبانيين والسبئيين والحميريين وهى الدويلات التى نقل عنها المسند الحميرى؟ أو أن عرب شبه الجزيرة العربية نزحوا إلى شمال إفريقيا فكانوا أجداد الجنس العربى الذى يعيش فيها الآن ؟

---

(١) J.A. Hammerton, Universal History of the World, Vol. 1, "The Primitive Community. Origins of Races" pp. 194-195.

(٢) Breasted (November 1919). "The Origins of Civilisation"

ولقد أجابوا عن هذا السؤال فقرر فريق أن أقدم وطن للعرب الذين أرسوا قواعد لغتهم السامية هى إفريقيا ، ويذهب « بلجريف » Palgrave إلى أن أوجه الشبه الجنسية القوية بين العرب وبربر شمال إفريقيا وخاصة شكل الفك وركبة الساق إلى جانب تشابه اللغة وانسجام التجاوب الاجتماعى تقود إلى النظر بأن الساميين الصميميين فى شبه الجزيرة العربية قد قدموا من أصل إفريقى لا أصل آسيوى [1] . ويقرر « جيرلاند » Girland استناداً إلى أوجه الشبه الجسدية لتكوين الجمجمة وإلى أسس لغوية ، أن العرب الآسيويين يعودون فى مبدأ حياتهم إلى مناطق شمال إفريقيا ، بل إن « جيرلاند » يقرر وحدة الجنس بين أهل شمال إفريقيا والساميين العرب وهو يرى أن الحاميين والساميين شعب واحد [2] . كما أن « بيرتن » Bertin قد دافع منذ عام ١٨٨٢ عن النظرية التى تقول بأن الساميين والحاميين نشأوا معاً فى إفريقيا وأن الساميين الإفريقيين نزحوا إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق برزخ السويس وأتموا مميزاتهم الجنسية الخاصة فى العربية الحجرية [3] ثم إن « برنتن » Brinton احتضن هذه النظرية منذ عام ١٨٩٠ ، وحاول أن يحدد بطريقة أكثر دقة المكان الذى نزح منه العرب الساميون فى شمال إفريقيا واستند إلى أن التقاليد الشعبية ودراسة اللغات المقارنة وعلم الأجناس وعلم الآثار والحفريات كلها تشير إلى وديان

---

(١) Article Arabia, Encyc. Brit.

(٢) Article Ethnography, Incongraphic Encyc. Vol. 1.

(٣) Journal of the Anthropological Institute, Vol. XI, p. 431

الأطلس فى المغرب على أنها منبع الهجرات البشرية العربية[١]. كما أن « كين Keane» يرى أن موريتانيا فى المغرب هى الوطن الأصلى ومركز التفرق لا للحاميين والساميين فحسب بل لكل الجنس القوقازى، وهو بذلك يقطع بأن العرب من أصل إفريقى، كما أنه يرى أن جنوب شبه الجزيرة العربية هو أول موطن للساميين العرب بعد هجرتهم من الأرض الإفريقية[٢].

وهذه النظرية التى تذهب إلى أن الموطن الأصلى للعرب كان فى إفريقيا لاتتعارض — كما يرى « روبنسن سميث» Robinson Smith — مع النظرية التى تذهب إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت أول وطن آسيوى لهم وكانت النقطة التى تفرقوا منها ، فإذا كانوا قد نشأوا أصلا فى إفريقيا فإن النظرية التى تذهب إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت مهدهم بعد هجرتهم من القارة المجاورة تدعم وتقوى إلى حد كبير[٣]. وأخيراً فإن « ناثانيل شميث » Schmidt قد رأى فى بحث قرأه فى مؤتمر الأديان بباريس عام ١٩٠٠ أن العرب الساميين ربما دخلوا شبه الجزيرة العربية عن طريق أرض بونت ، الحبشة والصومال، وأنهم عاشوا فى شبه الجزيرة

---

(١) Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890, also his Races and Peoples, New York, p. 132.

(٢) Ethnology, Cambridge, 1896, p. 392 also his Man, Past and Present, 1899, p. 490.

(٣) Wright's Comparative Semitic Grammer.

العربية مدة طويلة تكفى لكى يتلقوا مميزاتهم الخاصة (١) .

ويعقب « بارتون » على هذه الحقائق العلمية فيقرر بأن جنوب أوربا قبل نهاية العصر الجليدى كان متصلا بشمال إفريقيا عن طريق جبل طارق أو عن طريق إيطاليا، صقلية وتونس أو عن طريقهما معاً، وأن الصحراء الإفريقية ، على الأقل فى جزء منها ، قد غمرتها المياه فانفصل شمال إفريقيا عن جنوبها وظل الانفصال مدة طويلة ولذلك افترقت حياة كل من جزأى القارة الإفريقية عن حياة الآخر ،وأن هذه الحالة انتهت ببدء العصر الثلجى الأخير ، وأن من المحتمل أن الجنس الأبيض المتوسط ، فى ذلك الزمن البعيد وتحت تلك الظروف ، قد تطور وبدأ يستكمل مقوماته (٢) .

وقد استقر الرأى العلمى على حقيقة ثانية هى أن الحضارتين المصرية والعراقية هما أقدم حضارات العالم وأهمها ، وأن ما ظهر من حضارات أو ثقافات أخرى كان أقل منهما شأناً، واعتمد على إحداهما أو على كلتيهما معاً ، وأن هاتين الحضارتين كانتا تلتقيان فى سورية؛ ولذلك جعل مؤرخو تينك الحضارتين لدراسة الآثار السورية أهمية كبرى .

ولكن كثر التساؤل بين علماء التاريخ عن أيهما أقدم : حضارة مصر، حضارة وادى النيل، أم حضارة العراق، حضارة ما بين النهرين ؟

---

(١) George Aaaron Barton "A Sketch of Semitic Origin, Social and Religious".

(٢) بارتون — نفس المرجع — ص ١٦ — ١٨ .

وقد أجاب فريق منهم عن ذلك بأن « من الثابت أيضاً — وفقاً لأحدث النتائج التي وصلت إليها أبحاث الأثريين — أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة بعضها ببعض ، وكانت التجارة قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب كما أخذت الهجرات تتوالى بين بعضها وبعض فاتصلت مصر والعراق ، وكانت مصر إذ ذاك تجتاز فترة انتقال وتطلع فأثمرت هذه الصلة وأخذت مصر عن العراق شيئاً من مظاهر حضارته مثل الأختام الأسطوانية التي عثر عليها في مقابر ما قبل الأسرات وبعض مقابر الأسرة الأولى المصرية ، وهذه الأختام الأسطوانية كانت معروفة في العراق في العصر الذي يطلق عليه الأثريون الآن عصر ما قبيل اختراع الكتابة . ويطلق اسم عصر ما قبل الكتابة أو قبيل اختراع الكتابة Protoliterate period في بلاد العراق على الفترة بين عامي ٣٧٥٠ و ٣١٠٠ ق . م — ثم يلي ذلك ، أي ابتداء من عام ٣١٠٠ تقريباً في جنوب العراق ، العصر المسمى عصر الأسرات المبكر Early Dynastic Period وهو يقابل في مصر الوقت الذي تم فيه توحيد البلاد كلها تحت حكم ملك واحد وبدء الأسرة الأولى ، وليس معنى ذلك أن حضارة مصر أو العراق بدأت في الألف الرابعة قبل الميلاد فإن الحضارة في كل من البلدين نشأت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة ؛ فالحضارة السومرية بدأت في شمال العراق حوالي عام ٥٠٠٠ ق. م وذلك في العصر المسمى عصر حسونة ويقابل في مصر العصر التاسي نسبة إلى قرية تاسا بمحافظة أسيوط . . . وقد حملت كثرة تأثيرات فن بلاد العراق في الفن المصري

فى ذلك العصر المبكر بعض علماء الآثار على القول باحتمال هجرة كبيرة من بلاد الرافدين إلى النيل . . . وكما عثر فى مصر على آثار من العراق فقد عثر أيضاً فى العراق على آثار من مصر وظهرت فى فنونها تأثيرات مصرية[١]. ومنهم من ذهب إلى أن الحضارة المصرية حضارة مستقلة . . . وأن « التاريخ المصرى استغرق أكثر من أربعة آلاف عام ، وعمرت هذه الحضارة وهى الوحيدة الممثلة لنوعها ، أطول من أية حضارة اتصل بها علمنا ، وهذا على الرغم من أنها على ما يبدو إحدى الحضارتين الوحيدتين اللتين لا تمتان إلى غيرهما من الحضارات بسبب . الحضارة الثانية هى الأندية ، وتاريخها من الألف الرابعة قبل الميلاد إلى القرن الخامس الميلادى يمتد فترة تربو على أضعاف عمر الحضارة الغربية ، وقد ولدت الحضارة المصرية — كما ولدت الحضارة السومرية — استجابة لتغير فى المناخ يظن أنه عرا إفريقيا وآسيا بعد زوال العصر المطير ، وهو ما يقابل العصر الثلجى فى أوربا ، فقد غاضت مياه النهرين واستحالت المراعى العشبية التى كانت تشرف على وادى النيل الأدنى إلى صحراء هى الصحراء الليبية فتغلغل الرواد الجريئون فى مستنقعات وادى النيل وأدغاله التى لم تطأها قدم إنسان من قبل كما تغلغل إخوانهم فى الوادى الأدنى

---

(١) أحمد فخرى : « الاتجاهات الحديثة فى المباحث التاريخية والأثرية الخاصة بالشرق القديم » المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ١٩٥٠ ، ص ٦ — ١٠ ، وقد استند على كتاب فرانكفورت Frankfort الذى أسماه The Birth of Civilisation in the Near East

لدجلة والفرات ، واستطاعت جهود الإنسان أن تتحكم فى خصوبة الطبيعة المسرفة ، وكان الإقليم موحشاً خلواً من السكان أشبه الأشياء فى منظره بأقليم السدود فى بحرى الجبل والزراف ، وكان لزاماً على أهل مصر أن ينتقلوا لأن موطنهم الذى كان غنياً بالمرعى الطيب كان يتحول إلى صحراء جرداء . . . . وعظمة الاستجابة التى استجاب بها المصريون لصرامة التحدى هى التى تضفى على التاريخ المصرى دلالة الحقيقة »(١).

ومنهم من ذهب إلى أن أول أرض واتت بحق تقدماً طبيعيا للحضارة ولأشكال من الرقى فى الحياة السياسية والاجتماعية هى الأرض التى مهدها الإنسان خلال بضعة آلاف من السنين فى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط من النيل إلى مابين النهرين ، فهناك ترك انحسار البحر البليوسينى أرضاً جافة تمتد من الأطلس إلى الخليج العربى ، وفى هذه الأرض شقت أنهار النيل والأردن والعاصى والفرات مجاريها وتكونت ودیانها كما تخلفت خلجان البحر الأحمر والبحر الميت والخليج العربى الموازية لتلك الأنهار والوديان . وقد تخلفت عن الانفجارات البركانية شبه جزيرة سينا وأحجار البازلت والجرانيت والمعادن فى النوبة وسينا وشبه الجزيرة العربية وعيلام . وأنه برغم البحر العريض الذى يفصل بين مصر والجزيرة العربية الذى

(١) جيمس أكوتى : « مكانة مصر فى كتاب توينبى » ترجمة فؤاد أندراوس ، المجلة التاريخية المصرية مايو – أكتوبر ١٩٥٨ ص ١٢٧ – ١٣٠ وقد استند على كتاب Study of History

يتفرع منه خليج السويس الذى لا يزيد عرضه عن سبعين ميلا والذى يفصل بين إفريقيا وآسيا ، فإن كل هذه المنطقة التى تم فيها تكوين مصر والعربية وفلسطين وسورية وما بين النهرين وأشوريا تجمع بينها وحدة جيولوجية وطبيعية . . . وبقيت آثار أولئك الناس فى مبانى ومومياءات ونقوش مصر وكلديا . ولذلك فإن تاريخ الإنسانية يمكن – بل يجب – أن يدرس بين شعوب الشرق العربى القديم مبكراً بضعة آلاف من السنين عن ذلك التاريخ فى أية منطقة أخرى .

وحتى فى تلك المنطقة المحظوظة من شرق البحر المتوسط لم تعدل الطبيعة فى توزيع هباتها عليها ، فقد قلت الأمطار فى ليبيا والعربية وسورية وأصبحت حياة الإنسان مهددة بالخطر ولكن ظلت الظروف مواتية فى وادى النيل والفرات ولذلك نشأت أول حضارتين رئيسيتين بين أهل مصر وكلديا . وبين هذين الواديين تحتل مصر مكان الصدارة لقدمها ولوفرة وجمال آثارها ، ففى مصر لم يظهر الإنسان منذ أقدم العصور فحسب ، بل إن تطور جسمه وروحه وآثاره الاجتماعية والسياسية والذهنية والفنية يمكن تتبعه فى تسلسل بدون انقطاع تقريباً إلى يومنا هذا ، وهو أمر تنفرد به الحضارة المصرية وحدها ، ولذلك يجب أن تبدأ فى مصر دراسة أصول المدنية التاريخية وفيها تفصل ملاحظة تقدم تلك الحضارة وإشعاعها إلى مراكز الشرق الثقافية الأخرى[١] .

---

(١) A. Moret & G. Davy : From Tribe to Empire

لندن ، ١٩٢٦ ، ص ١١٥ – ١١٧

وذهب فريق إلى أن المنطقة الآسيوية التى تمتد على البحر الأحمر وخليج العقبة تتسم بطبيعة تعد تكراراً جغرافياً للقارة الإفريقية؛ فالحقيقة أن هذه المنطقة المتشابهة هى امتداد واضح لإفريقيا، وأن آسيا إنما تبدأ فى جبال الأناضول وإيران ، وأن البحار الأربعة الكبرى التى تحيط بالمنطقة العربية وهى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربى تلطف من جو المناطق الساحلية وتمدها بالرطوبة اللازمة للزراعة، وأن اليمن — العربية السعيدة — ربما كانت لذلك مهداً لحضارة مبكرة . . . وأن الجنس السامى الذى تربطه قرابة وثيقة بالجنس الحامى الذى عاش فى شمال إفريقيا قد تطور فى تلك المنطقة ، وأن العناصر العرقية أو « الجنسية » لهذا الجنس السامى ولغة هؤلاء الساميين تقطع بوحدة رائعة بين جميع الشعوب التى نسميها العرب : كنعانيين وفينيقيين وعموريين وكلدانيين وآشوريين، وأن الحفائر العلمية لا تزال قليلة فى هذه المنطقة الشاسعة اللهم إلا بعض الحفائر فى مناطق منعزلة بفلسطين والعراق وعيلام وهى لا تقارن بالحفائر التى أجريت بمصر ولذلك لم يعثر لا فى فلسطين ولا فى كلديا ولا فى أية منطقة من الجزيرة العربية على محطات تعود إلى العصر الحجرى الأعلى « باليوليتى »، لتدل على وجود الإنسان المبكر هناك، وكل ما عثر عليه رواسب قليلة العدد تعود إلى العصر الحجرى الحديث « نيوليتى » ؛ وهذا لا يدل على أن الإنسان لم يوجد فى تلك المناطق فى عصر مبكر ؛ ففلسطين والعراق وكلديا ومصر لم تتأثر بهجوم الجليد فى العصر الثلجى كما عانت أوربا وشمال آسيا ،

وبذلك عاقت هذه الهجمات تقدم تلك المناطق الشمالية وأوقفت تطورها، وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن ظروف الحياة فى فلسطين والعراق قد واتت الإنسان العربى بما يعينه على حياة مجزية ولكننا لا نعرف شيئاً عنها قبل الألف الرابع قبل ميلاد المسيح ، وأننا عرفنا أهل تلك المناطق على الآثار المصرية ، على لوحة تعود إلى عهد الملك « دين » حوالى عام ٣١٧٥ ق.م وعلى رسم يعود إلى عهد الملك « سمرخت » حوالى عام ٣٣١٥ ق.م والملك خوفو حوالى عام ٢٨١٥ ق.م . . . وفى هذا الطراز الإنسانى وتحت هذه الأسماء نتبين البدو المحدثين : العرب الذين ينتمون إلى الجنس السامى الصميم الذين يسكنون الواحات والصحارى العربية سواء فى شبه الجزيرة العربية أو شرق النيل أو جبال سيناء أو الأرض القاحلة بين مصر وفلسطين .

ولقد ساق البدو قطعان مواشيهم من مصر إلى إيران وقادوا القوافل على بحر الصحراء عبر آلاف السنين قبل أن يستقروا، فظهروا أولا فى العراق الأدنى يصحبهم الكنعانيون الذين كانوا قد انتهى بهم المطاف إلى الاستقرار وهناك بدأوا يبنون مدناً عدة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد واستعمروا العراق الأعلى والأراضى المجاورة ، وهذه الأرض هى مهد الآشوريين الذين ظهروا فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تطور نمو الكلدانيين والآشوريين سواء بسبب خصب إمكانياتهم الخاصة أو عن طريق استيعاب عناصر خارجية وهجرات سامية أخرى فى عهد « سارجون » الكبير أى حوالى عام ٢٨٠٠ ق.م وحمورابى حوالى ٢١٠٠ ق.م وفى

ذلك العصر تكونت القبائل العامورية فى سورية والواحات التى حول دمشق.. ووصل الآراميون إلى منطقة الأردن والواحات التى حول البحر الميت عام ١٤٠٠ ق.م وقد بدأ تاريخ موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط بالفينيقيين فى الشمال والفلسطينيين فى الجنوب حوالى عام ١٢٠٠ ق.م ، أما الجزيرة العربية نفسها فإننا لا نعرف شيئاً عنها إلا من الإشارات الموجزة فى النصوص المصرية والبابلية ، حتى عام ١٠٠٠ ق.م فقط عندما برزت من الظلام على شاطئ اليمن الدول الأربع وهى دول المعينيين والحضرميين والغتبانيين والسبئيين — الحميريين ، وقد بذلت محاولات لتفسير ظهور جماعات سامية متلاحقة مختلفة بأنها من هجرات تكررت فى أوقات دورية . ونقطة البدء فى هذه النظرية أن الجزيرة العربية كانت مهد جميع الساميين ، فى الواحات والمناطق الساحلية الخصبة ربما تزايد السكان حتى اضطر الجنس السامى أن يفيض فى فترات دورية ربما كانت مرة كل ألف عام كما يفيض الخزان إذا امتلأ حتى حافته ، وأن يتخذ ذلك الفيضان شكل تيارات هجرة كبيرة ، وربما كانت أول هجرة للكلدانيين حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م ثم العاموريين الذين أسسوا الدول البابلية حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م وتلاهم الآراميون حوالى عام ١٥٠٠ ق.م ثم الأنباط والعرب الذين نزل الإسلام عليهم .

---

(١) موريه وداف ، نفس المرجع ص ١٨٧ — ١٩٤ وقد استندا على ملخص نظرية Winckler المنشور فى كتاب Clay الذى أسماه The Empire of Amorites المنشور فى « نيوهافن » عام ١٩١٩ .

وقد استند رأى ثالث إلى ما جاء فى كتب المؤرخين المسلمين عن عاد وثمود وأن عاداً كانوا يقطنون اليمن فى أرض سبأ، وأن سد مأرب قد بنى فى عهد ملكهم لقمان بن عاد الذى كان يسمى « ذا النسور » ، وأنه كان يعيش فى شمال الجزيرة العربية بين الحجاز وسوريا قوم ينتمون بصلة القرابة إلى أهل الجنوب هم ثمود ، وأن ثمود قد ذكروا فى كتابات « ديودورس سيكولس » و « بطليموس » ، وأنهم قد عاشوا حتى القرن الخامس الميلادى فى صدد الإشارة إلى جيوش إمبراطورة الدولة البيزنطية؛ وأن تاريخ الجنوب العربى فيما قبل الإسلام هو تاريخ السبئيين والحميريين الذين ينتسبون إلى سبأ وحمير رئيسى الدولتين اللتين امتدتا من البحر الأحمر إلى الخليج العربى ، وأن سبأ تطلق خطأ على أرض العربية السعيدة كلها بينما الحقيقة أنها إحدى دول عدة قد لا تكون أولها ولا أقواها ذكرت أسماء ملوكها وعواصمها فى الأدب الإغريقى؛ ومهما زعم من المبالغة فى ثروة السبئيين وعظمتهم فإن من المؤكد أن سبأ كانت دولة تجارية مزدهرة قبل ميلاد المسيح ببضعة قرون ، وقد أتاح اختفاء السبئيين الفرصة لفرع حديث منهم هم الحميريون كانت تقع دولتهم بين دولة سبأ والبحر ، وسرعان ما أصبحوا القوة السائدة فى الجنوب العربى وامتد نفوذهم إلى القبائل الشمالية حتى نهاية القرن الخامس عندما تجمع الشماليون بقيادة كليب بن ربيعة وقد تضاءل نفوذ الحميريين قبل ظهور الإسلام بنحو مئة عام[1] .

---

(١) Reynold Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge ١٩٥٣ ، ص ٢ — ٥ .

واتجه رأى عملى إلى أنه « إلى أن يثبت أن الساميين جاءوا إلى بلاد العرب من بلاد غيرها يلزمنا أن نعتبر جزيرة العرب الوطن الأصلى للساميين. ولعله من الممكن تحديد هذا الوطن فى القسم الجنوبى من هذه الجزيرة(١) ».

وقد ذهب فريق من علماء الأجناس إلى أن هناك ثلاث نتائج من الصلة بين آسيا وإفريقيا ، الأولى ولعلها أكثرها أهمية هى شاطئ البحر الأبيض المتوسط وهذا البحر نفسه ، فإذا ثبت فى التاريخ القديم أن الإنسان كان يعيش فى حوض هذا البحر فى وقت كانت لا تزال فيه الجسور الأرضية بين أوربا وإفريقيا قائمة — وهو الرأى الذى ينادى به « زاميت » بعد الأبحاث التى قام بها فى مالطة — فإن الفجوة التى تفصل بين آسيا وإفريقيا لم يكن لها وجود فى ذلك الوقت ، وآسيا تتحكم فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، والشريط الضيق الذى شقت فيه قناة السويس فيما بعد يكون وسيلة لانتقال كثير من الشعوب التى تسكن شمال إفريقيا الآن من آسيا إلى إفريقيا . وثانية الصلات بين القارتين فى مضيق باب المندب ، ففى الوقت الحالى قد لا يشجع الجو داخل الجزيرة العربية على الهجرات البشرية إليها ، ولكن من الممكن ، بل أكثر من الممكن ، أنه منذ سكن الإنسان هذه المنطقة كان جوها أقل قسوة ،

---

(١) H. St. J. B. Philby, The Background of Islam, being a sketch of Arabian History in Preislamic times.

الإسكندرية ، ١٩٤٧ ، ص ٨ وقد استند محمد مبروك نافع على هذا الرأى فى كتابه « تاريخ العرب : عصر ما قبل الإسلام » الطبعة الثانية ، ص ١٣ ، ١٤ .

وبعد أن استعرض هذا الفريق من علماء الأجناس رأى إيليت سميث الخاص بتسمية أهل منطقة جنوب غرب آسيا الذين يسكنون شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية وأهل ما بين النهرين وأهل مصر باسم « الجنس الأسمر » استطردوا فقرروا بأن هناك عدة فروع من جنس واحد هو الجنس الذى أسماه إيليت سميث « الجنس الأسمر » ؛ فى الغرب يعرف باسم الجنس الأبيض المتوسط وفى الوسط يعرف باسم « الجنس الأسمر » .

وقرر هذا الفريق من علماء الأجناس أن هناك بينات فى كل منطقة البحر الأبيض المتوسط على أن أهلها الأصليين وثيقو صلة القربى بجنس البحر الأبيض المتوسط الحالى .

وذهب هؤلاء الأنثروبولوجيون إلى أنه من المحتمل أن تكون منطقة البحر الأبيض المتوسط هى مهد الجنس الأبيض المتوسط ، وعاد هؤلاء العلماء فاستندوا إلى رأى « إيليت سميث » القائل بأن المصريين والعرب بل السومريين أقارب ينتمون جميعاً إلى أسرة « الجنس الأسمر » وقد تخصص كل منهم على حدة بالإقامة الطويلة فى وطنه الخاص .

واستطرد العلماء فقرروا أن رجل البحر الأبيض المتوسط قد وجد بوادى الفرات فى تاريخ بدائى قديم ، ومن التاريخ الصحيح أن الغزاة العرب الأول جاءوا من جنوب شبه الجزيرة العربية ، وأكبر الاحتمال أنهم كانوا من الجنس « طويل الرأس » ، وأن هناك احتمالا آخر بأن أهل ما بين النهرين الأصليين كانوا من الطراز المصرى الصميم طويل الرأس .

وانتهى هؤلاء الأنثروبولوجيون – بعد الإشارة إلى رأى « سيليجمان » Seligman إلى أن العنصر السائد فى أهل الجزيرة العربية هو « الجنس الأسمر » والأرجح أنهم أصل أهل هذه الجزيرة كلها[1] .

وقد قرر « إيليت سميث » فى معرض شرح أصل المصريين أن العلم الحديث المبنى على ما كشف فى مقابر النوبة قد أوضح إيضاحاً كافياً أنه خلال الألف الرابعة قبل الميلاد لابد أنه كانت هناك سلسلة من شعوب تربط بينها وشائج القربى مبعثرة حول النيل وممتدة إلى جنوب مصر بل إلى بلاد الزنوج ، فلما قويت شوكة مصر ، وعظم رخاؤها تحركت تلك المجموعات البشرية الجنوبية صاعدة إلى الشمال واحدة بعد أخرى ، وأقرب هذه المجموعات جغرافيا إلى المصريين هم العرب البدو والسوريون ، ولا شك أن الشبه بين وجوه أهل ما بين النهرين القدماء ووجوه الملكية المصرية كالشبه بين قطرتين من الماء .

ثم مضى هؤلاء العلماء فأشاروا إلى أننا لو توغلنا قليلا فى رغبتنا فى معرفة ما كانت عليه تلك الصورة فى العرب البدو وفى الأقوام التى قد ندرك أنها أثرت فى جنس قدماء المصريين ، فى البجة والبشاريين ، لتبينا أن العرب عديدون فى مصر ، وأنهم بعد فتحها ظلوا العنصر السائد مدى ستة قرون ، ورغم أن المماليك والأتراك اغتصبوا منهم النفوذ السياسى إلا أنهم ظلوا العنصر الرئيسى فى الذكاء والمقدرة فأصبح من الممكن التقرير

---

(١) L/H. Dudley Buxton : The Peoples of Asia ١٩٢٥ ، ص ٣٤ – ١٠٦

بأن مصر كلها عربية . وقد فحص « شانتر » بضع قبائل عربية من بدو مصر فتبين أنهم من الجنس طويل الرأس وأن العربى البدوى المصرى وثيق الصلة والقربى بالفلاحين والأقباط ، وانتهى هذا الفريق إلى أنه إذا كان البدوى يشبه الفلاح والقبطى وهذان الأخيران يشبهان قدماء المصريين فهل نستطيع أن نعد أن هذا الشعب فى الماضى وفى الحاضر إنما يمثل مرحلتين فى تاريخ مجموعة جنسية إفريقية – آسيوية عظمى ؟ هل بدو الجزيرة العربية وسورية لا يزالون يسكنون نفس الأرض التى عاش عليها أجدادهم فى عصور ما قبل التاريخ كما يفعل أقباط وفلاحو مصر ؟ إذا أجبنا عن هذا السؤال بالإيجاب فإن علينا أن نقر بأن شعباً ينتمى إلى الجنس طويل القامة طويل الرأس كان يعيش فى نفس الوقت فى زاوية البحر الأبيض المتوسط الشرقية وعلى جانبى البحر الأحمر ، أنشأ فريق منه – هو الذى سكن وادى النيل – الحضارة المصرية بينما احتفظ إخوتهم فى الجنس – لأسباب مجهولة – بتقاليدهم القديمة ، بل حاربوا إخوتهم فى وادى النيل[1] .

وقد أجمع المؤرخون على أن غارة الهكسوس الذين غزوا مصر حوالى عام ١٧٠٠ ق . م أى فى نهاية الأسرة الثالثة عشرة وهم ينتمون إلى جنس دخيل على الشرق العربى – قد عجزوا عن أن يطبعوا الحضارة النيلية بطابعهم وانتهوا سريعاً بالتمصر ، ويقرر البعض من المؤرخين المصريين

---

(١) Eugène Pittard, Race and History ، ١٩٢٧ ، ص ٤٢٨ – ٤٣١

المتوفرين على دراسة تاريخ شرق الدلتا أن غارة الهكسوس كانت مشجعاً عظيماً على وصول القبائل العربية البدوية إلى مصر وسكناها فى شرق الدلتا بوجه خاص[١] .

ولم يقو الهكسوس على مقاومة الهجمات التى بدأت تهز كيانهم من الجنوب وربما من آشوريا .

واتضح أن الغزاة الآريين من الكاسيين والحيثيين والميتانيين لم يوفقوا فى تنفيذ الخطط الخاصة بإنشاء دولة من الشرق العربى كله وهى الخطط التى سبق أن وضعها العرب وحاول حمورابى إخراجها إلى حيز التنفيذ .

إلا أن سيطرة تلك العناصر الدخيلة على الشرق العربى ، ولو أنها لم تدم طويلا ، قد دفعت ساسة طيبة وبابل العقلاء إلى التفكير فى خير الوسائل لتنظيم دولة أكثر استقراراً .

ومما لا شك فيه أن غزوة الهكسوس قد أيقظت الشعور الوطنى بين المصريين وكشفت خطورة تسلل العناصر الآرية الأجنبية إلى جنوب غرب آسيا ، وأوحت إليهم فكرة إنشاء دولة تجمع الشرق العربى كله ، وهذه العوامل كلها أملت على المصريين سياسة كان يجب لتنفيذها أن تمر فى ثلاث مراحل ، أولاها تحرير وادى النيل من الهكسوس ، وثانيتها ضم سورية ، وأخيراً إنشاء إمبراطورية فى الشرق العربى ؛ أى فى

---

(١) عباس عمار : « المدخل الشرقى لمصر أو أهمية شبه جزيرة سيناء كطريق المواصلات ومعبر للهجرات البشرية » ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٤٥ ص ٤٨٨ .



رفاعة رافع الطهطاوى



عمر المختار

شمال شرق إفريقيا وجنوب غرب آسيا .

وفى عهد تحوتمس الأول (حوالى عام ١٥٢٥ ق.م عندما تخلصت مصر نهائياً من الغزو الهكسوسى واستعادت حدودها الجنوبية ، واستردت قواها ، بدأت تتلمس حلا لمشكلة وحدة الشرق العربى .

وإذا كان الهكسوس قد اختفوا من التاريخ بسقوط عاصمتهم أفاريس فإنهم بعد أن امتزجوا بالكنعانيين والعموريين من الفرات إلى برزخ السويس تركوا فى هذه المنطقة من الشرق العربى أثراً باقياً ، ولقد تبينت مصر أنها – لكى تؤمن حدودها الشرقية من غزوات آسيا الصغرى – يجب أن تمتد تلك الحدود إلى فرع الهلال الخصيب الذى يمتد من الفرات إلى برزخ السويس ، وأن تقيم رأس جسر عند نهاية طريق الغزو ، فلم تكد تنتهى من استعادة الحدود النوبية حتى استعدت لتحقيق تلك الوحدة المصرية السورية . وبدأ المصريون يحققون المشروع الضخم الذى وضع الهكسوس خطته وهو إنشاء وحدة تضم الشرق الأدنى كله (١) أو الشرق العربى بتعبير أدق .

وقد عبر تحوتمس الأول الصحراء الشرقية وسورية ووصل إلى ضفة الفرات ، فكان أوسع شكل من أشكال التوسع حققته مصر ، وتحققت وحدة مصر مع أقطار من الشرق العربى لم يكن يتردد عليها من المصريين إلا التجار ورسل الفراعنة ، فاستطاع سفراء حتشبسوت (حوالى ١٥٠٠ ق.م)

---

(١) موريه ودافى ، نفس المرجع ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٦ .

أن يحصلوا على طاعة أهل نبط ، أى أهل الدولة المعينية التى كانت تقوم فى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية ، وفى عهد تحوتمس الثانى عاد المصريون إلى تدعيم الوحدة ، مع لوتانو أى سورية ، وعاد تحوتمس الثالث (١٥٠١ – ١٤٤٨ ق . م) إلى مد رقعة الوحدة .

وقد امتدت بذلك تلك الوحدة إلى قادش ومجيدو ، وتابع تحوتمس الثالث سيره إلى لوتانو العليا ، فى وادى العاصى ، وبنى قلعة فى قلب لبنان ، وظل يعود إلى هذه المنطقة الآسيوية من الشرق العربى كل عام حتى العام الثانى والأربعين من حكمه ، حتى شملت الوحدة المراكز الاستراتيجية التى تتحكم فى الهلال الخصيب بأجمعه وضمت الجزء البابلى من العراق الشمالى وآشوريا والجزء الحيثى .

وبذلك لم يكد ينقضى قرن واحد على سقوط أفاريس عاصمة الهكسوس حتى حقق ملوك طيبة وحدة ضمت مصر العظمى والقرن الغربى للهلال الخصيب فى آسيا .

ولم تكسب مصر من جهود تحوتمس الثالث لتحقيق تلك الوحدة الأمن فحسب بل التناسق والانسجام فى الشرق العربى مدى قرن من ١٤٦٠ إلى ١٣٦٠ ق .م وقد ساد ذلك التناسق بدون أن يفرض فرضاً بواسطة تدخل مسلح لأنه استجاب لدواع طبيعية تربط بين شعوب هذا الشرق .

وقد وصلت تلك الوحدة إلى ذروتها فى عهد أمنحتب الثالث وفى بدء عهد أمنحتب الرابع (١٣٨٠ – ١٣٦٢ ق .م وقد كشف ثلثمائة

لوح من الطوب عام ١٨٨٨ عثر عليها فى خرائب تل العمارنة التى كانت عاصمة أمنحتب الرابع «أخناتون» عن أمر عجيب هو أن الحكام المصريين كانوا يخاطبون أمراء سورية باللغة البابلية مكتوبة بالخط المسمارى، أى أن تلك اللغة كانت هى اللغة الدبلوماسية المتعارف عليها فى العالم المتحضر إذ ذاك، ولم يكن ذلك العالم يعدو الشرق العربى (١).

وفى نهاية حكم أمنحتب الثالث تحقق أول شكل من أشكال الوحدة بين شعوب الشرق العربى على أوسع نطاق عرف فى التاريخ؛ إذ تدعمت الصلات بين مصر وبين البابليين العرب والميتانيين والحيثيين، فلم يعد الاتصال المتبادل مقصوراً على الأفراد كما كان يحدث قبل ذلك بل توثقت العرى بين الملوك وأسرهم وحكامهم ووكلائهم عن طريق الصداقة أو التزاوج، وربطت بينهم معاهدات تجارية، واشتركوا فى تنفيذ خطط موحدة للتوسع الحربى والتجارى، وتبادلوا الأفكار والمشروعات والآراء فى الفنون وغيرها من ميادين النشاط، وتدفق تيار عظيم من تيارات التجارة والفكر، ومن التبادل التجارى والاقتصادى بين كل العواصم العربية بابل ونينوى ملتقياً بفروع عديدة من هذا التيار فى دلتا النيل، ملتقية جميعاً فى الحضارة المصرية، فانية فيها، وللمرة الأولى فى تاريخ العالم تنبه الإنسان إلى مزايا السلم العالمى، وشعر بنفع وضع سياسة عامة مشتركة لشعوب العالم، وقد خلفت الوثائق الدبلوماسية

---

(١) جون ويلسون، «الحضارة المصرية»، ص ٢٨٨ — ٣٠٢، ترجمة أحمد فخرى

ما يقطع بالصداقة التي توثقت في ذلك العصر بين الملوك والشعوب « صداقة تغذيها فكرة واحدة ، وينبض بها قلب واحد » وتمثل إلى حد الكمال تقدم التطور الروحي نحو نوع من التعاون الدولي فأصبحت وحدة الشرق العربي في عام ١٥٠٠ ق.م حقيقه تاريخية[١] ، وهي الوحدة التي لا تزال تتعثر شبيهتها الأوربية بين أحلام المثاليين من بعض رجال السياسة ومؤامرات البعض الآخر حتى اليوم .

ولما كانت الوحدة السياسية لا يمكن أن تكتمل بدون مثل روحي وديني أعلى ، فقد انتهى ساسة هذا الشرق العربي — في ذلك الوقت الذي كانت الآلهة تهيمن فيه على كل ميادين الحياة العامة — إلى أن سلام الشرق يعني أن آلهة الشعوب المختلفة قد تصالحت وتوادت ، والواقع أن « آمون » و « أوزيريس » كانا يعبدان في سورية كما كان « سوتيخو » إله الحيثيين الميتانيين في سورية — يعبد على ضفاف النيل مع غيره من الآلهة الأسيوية ، إلى حد أنه خلال ذلك القرن من السلام لم ينشب أي خلاف ديني بين الشعوب التي ضمتها تلك الوحدة .

ولقد بدا منذ حكم أمنحتب الثالث ، الملك العظيم الذي حقق للشرق العربي وحدته ، نمو فكرة عبادة شكل من أشكال الشمس « آتن » وهو قرص الشمس الذي يذكرنا اسمه بكلمة « أدوناي » . أي « سيد » الساميين ، وقد ارتقى « آتن » في عهد أمنحتب الرابع إلى مرتبة إله الآلهة ، إن لم يكن الإله الوحيد ، ولم تفلح جهود كهنة آمون — رع

(١) موريه ودافي ، نفس المرجع ، ص ٢٩٥ .

بطيبة فى عرقلة ذلك الإصلاح الدينى ، فأخرج الملك الإله آمون من المعابد والكهنة من أعمالهم وغير اسمه وعاصمة ملكه وأطلق على نفسه اسم « أخناتون » « أى ذلك الذى يرضى آتن » وعلى عاصمته اسم « أخناتن » أى « أفق آتن » فى موضع تل العمارنة الحالى ، ويبدو أن غرض الملك من ذلك الانقلاب الدينى كان أن يقدم إلى المصريين عبادة لا تنتسب إلى مدينة معينة وليست مصرية فى الصميم ، وإنما عبادة تستمد قوامها من الطبيعة ، ولذلك يمكن أن تتسم بطابع العباة العالمية دون تقيد بقطر معين ، واختار « آتن » التى تتمثل فيها الحركة وتشع منها الحرارة والتى تهب الحياة لكل الكائنات بما فيها الأرض والماء والنباتات والحيوانات وأهل مصر والأقطار الأخرى ، وبذلك لم يفرق « أخناتون » بين المصريين وغيرهم من أهل الشرق العربى فالناس سواء أبناء ذلك الإله يجب أن ينظر كل منهم إلى الآخر نظرة الأخ إلى أخيه ، وتعمد واضع السلام الملكى المصرى إذ ذاك أن يذكر النوبيين والسوريين قبل المصريين ، وللمرة الأولى عد الدين كعروة وثقى توحد بين الناس فى الأقطار المختلفة وإن اختلفت لغاتهم وألوانهم[1] .

وفى نفس الوقت الذى شيد فيه عاهل مصر عاصمته « أخناتن » أنشأ فى النوبة مدينة « جيم آتن » — أى تلك التى تجد آتن — كما

---

(١) Alexandre Moret : Rois et Dieux d'Egypte, 3ème éd., Paris, 1922, p. 62.

أنشأ فى فلسطين — ربما فى مكان القدس — مدينة « خيناتيبى » .
وقصر العبادة على قرص الشمس يدل على أن أخناتون قد تبين أن شعوب الشرق العربى كانت فى حاجة إلى مثل أعلى مشترك قبل حاجتها إلى تحقيق مصالحها السياسية والتجارية ، ويبدو أنه حاول حقاً بذلك الانقلاب أن يخرج إلى حيز التنفيذ إنشاء إمبراطورية عالمية ضخمة ، وكان فى ذلك يمتاز على العاهلين العربيين سارجون وحمورابى اللذين لم يدركا ما أدركه من مشاكل السياسة الدولية ، ولم تكن إمبراطورية الشرق العربى أقرب إلى التحقيق قبل الإسكندر الأكبر وقياصرة الرومان مما كانت عليه فى عهد أمنحتب الثالث وأخناتون[٢] .

وبذلك دامت وحدة الشرق العربى الأولى نحو قرنين ونصف قرن (١٥٠٠ — ١٢٥٠ ق. م) ولقد اختفت الدولة الحيثية من التاريخ فى المدة من ١٢٥٥ و ١٢٠٠ ق.م واستطاع « توكلتى الأول » الآشورى (١٢٦٠ — ١٢٤٠ ق . م) أن يتغلب على أسرة بابل الحاكمة وأن يستولى على عاصمتها وأن يبدأ إعادة وحدة العرب فيما بين النهرين .

وفى نهاية القرن الرابع عشر كانت شواطئ ليبيا قد تسلط عليها القراصنة الغزاة من شعوب شمال البحر المتوسط ودفعوا أمامهم الإفريقيين الحاميين من أهل البلاد الأصليين الذين تدفقوا على مصر فاستخدمتهم فى قواتها غير النظامية واشتركوا معها فى حروبها ضد الحيثيين ، ولم يستطع رمسيس

---

(١) موريه ودافى ، نفس المرجع ، ص ٣٠١ .

أن يمنع تدفق الليبين السلمى إلى الدلتا واندماجهم فى المصريين بعد أن استقروا حول ممفيس وهليوبوليس كما استقروا فى الواحات .

وظلت موجات من هجرات الليبين تفيض على حدود مصر الغربية ، وبظهور الأيجيين نرى — للمرة الأولى — أن الأجناس التى نسميها أوربية قد بدأت تدخل مسرح التاريخ .

ولا شك أن تياراً من تيارات الهجرة البشرية من جبال الأطلس فى شمال غرب إفريقيا حاملا معه قبائل البربر إلى مصر قد ظهر فى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد (١).

وقد ساد الاضطراب فى مصر عقب تلك الفترة ، ولكن العنصر العربى كان يضفى طابعه حتى أثناء ذلك الاضطراب ، فقد تولى الحكم فى مصر أحد الأمراء الكنعانيين ، كما تمكن بعض البابليين من بناء مدينة على مقربة من ممفيس أسموها بابل ، واستطاع بعض الإسرائيليين فى شرق الدلتا أن يفروا فخرجوا من مصر ، ويحدد كثيرون من المؤرخين هذا « الخروج » فى عهد منفتاح . ولكن الآثار التى تدل على وجود الإسرائيليين فى كنعان فى عهد ذلك الملك تؤيد الرأى القائل بأنهم خرجوا فى نهاية عهد الأسرة الثامنة عشرة ، فى الوقت الذى كان الخبيرو « العبريون » الذين أشارت إليهم رسائل تل العمارنة يتعاونون فيه مع الحيثيين على إفناء النفوذ المصرى فى فلسطين .

---

(١) Hall : The Peoples of the Sea. Récueil des Etudes Egyptologiques, 2291.

ولعل هذا هو أول موقف استبان منه تعاون الإسرائيليين الساميين — أحفاد إبراهيم العربى — مع الآريين الأجانب الذين غزوا الجزيرة العربية على أهل هذه الجزيرة العرب .

وعاد العرب أهل شمال الجزيرة يحملون رسالة تحقيق وحدة الشرق العربى .

فى شمال سورية — وهى التى كانت تسمى فى الآثار المصرية لوتانو العليا — كان قد استقر منذ مدة فريقان من العرب ، فعلى الساحل استقر الفينيقيون[١] وفى الداخل خلف لبنان استقر الآراميون وهم بدو الصحراء السورية الرحل ، وقد تبادلوا الصلات مع المصريين وتجمعوا فى المدن وأنشأوا لتلك المدن حكومات تبادلت علاقات دبلوماسية دولية ، وأصبحت قواعد مصر البحرية السابقة صور وصيدا وجبيل موانئ تجارية لهم .

وفى داخل البلاد — خلف مراعى لبنان — استطاع الآراميون أن يبسطوا سيطرتهم ، أما الوديان — التى شهدت معارك العاموريين والحيثيين والمصريين — فقد أصبحت جنات بفضل ازدهار التجارة

---

(١) حاول M.C. Autran فى البحث الذى أسماه Phœnicians ونشره فى Mémoires et Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale بالقاهرة ، ١٩٢٠ أن يثبت أن الفينيقيين ليسوا ساميين بل إيجيين أى من جزر بحر إيجة ولكن هذه النظرية رغم ما حشد لها من مراجع لم تنل — كما يقر موريه ودافى فى المرجع المشار إليه فى هذا الكتاب — قبول العلماء .

والزراعة ، وتكونت فيها ثلاث دول هى : دولة حما ودولة زوبا ودولة دمشق ، ومما يدل على قوة تلك الدول الثلاث أنها استطاعت أن تعوق تقدم الآشوريين طيلة ثلاثة قرون .

واستطاع الفينيقيون والآراميون العرب — منذ القرن السابع قبل الميلاد — أن ينتزعوا السيادة التجارية وعمدوا إلى تنفيذ خطة قادة الشرق العربى منذ القدم فى تحقيق وحدة هذا الشرق، ولكنهم — هذه المرة — اتجهوا إلى إنشاء دولة تجارية عربية فى شرق البحر المتوسط .

أما فى جنوب سورية فكانت المنطقة الساحلية فى أيدى « الفلسطينيين » أى أبناء قبيلة فيلستيا الإيجية الذين حاولوا أن يستقروا نهائياً فى خمس مدن أهمها غزة على الشاطئ وأشدود فى الداخل ، ولكن هذا الشعب الإيجى اصطدم بالعبريين « الخبيرو » الذين كانوا قد بدأوا يتسللون إلى أرض شبلاح منذ عهد الملك منفتاح بعد « الخروج » وحاولوا تأسيس جنس خاص لا سند له من التاريخ أطلقوا عليه اسم « إسرائيل » نسبة إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وكان الكنعانيون والعموريون العرب إذ ذاك لا يزالون يتحكمون فى تلك الأرض العربية ، كما أن الفلسطينيين تقدموا حوالى عام ١١٠٠ ق . م إلى شواطئ الأردن وأخضعوا الإسرائيليين لهم . وقد أوحت تلك الهزيمة للإسرائيليين بتوحيد قبائلهم فأسس شاؤول دولة إسرائيل حوالى عام ١٠٠٠ ق . م وبعد أن قتل شاؤول أثناء قتاله مع الفلسطينيين تولى داود الحكم واتخذ القدس عاصمة الكنعانيين مقرا له ، ولكن ششنق الأول ملك مصر الليبى أعاد القدس إلى الحدود المصرية

عام ٩٢٥ ق . م وساهم فى تمزيق شمل الإسرائيليين .

وكان ملوك نينوى فيما بين النهرين قد استعادوا الأرض التى بين الفرات والعاصى التى تتحكم فى طرق الهلال الخصيب ثم ضموا موانئ الفينيقيين ، وأخيراً ضم تيجلات بيليسر الثالث دمشق عام ٧٣٢ ق.م[1] .

أما الإسرائيليون فعلى العكس ضعف شأنهم بانقسامهم بعد عام ٩٣٠ ق . م إلى دولتين إحداهما إسرائيل فى الشمال « سامريا » والأخرى يهودا فى الجنوب « القدس » وقد سقطت سامريا بعد أن ضمت دمشق إلى الأشوريين الذين استطاعوا بقيادة آسرحدون آشوراخى « الدين » عام ٦٧١ ق . م أن يضموا الدلتا . كما استطاعوا بقيادة آشوريا نيبال عام ٦٦٨ أن يضموا طيبة ، فتحققت وحدة الشرق العربى من كلديا إلى جزيرة ألفنتين فى أقصى الحدود المصرية جنوباً .

وعادت هجرات الساميين التى كانت قد توقفت إلى التدفق نحو حدود الدولة الآشورية العربية ، واحتل الكلدانيون بابل وسميت منذ ذلك الوقت كلديا ، وسقطت نينوى عام ٦٠٦ ق . م فانتهى وجود الآشوريين السياسى وحل الكلدانيون مدى ثلاثة أرباع قرن (٦٠٦ — ٥٣٩ ق . م) محل الآشوريين ، واستعادت بابل — بعد نحو ألف عام — مكانتها كعاصمة

---

(١) من ملوك هذه الدولة العربية سارجون الثانى (٧٢١ — ٧٠٥ ق. م) وقد قرر « فيلبى » عنه أنه فى النقوش التى تعود إلى عهده ذكرت الهدايا التى قدمت إليه من ملك عربى فى عام ٧١٥ ق. م كما تضمنت النقوش التى تعود إلى عهد ابنه سنكريب مثل هذه الإشارة . نفس المرجع ص ٣٠ — ٣١ .

العالم العربى السامى ، واستطاع ملكها بختنصر الثانى أن يحطم القدس عام ٥٩٦ ق . م وأن ينقل أهلها الإسرائيليين إلى بابل . وقد ذهب بعض المؤرخين الذين توفروا على دراسة العهد الإمبراطورى فى تاريخ الآشوريين والبابليين إلى أن الطابع المميز للآشوريين يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة هى «الكفاية» فقد كانوا جادين فى جميع ما زاولوا من شئون، وما عملوا من عمل إلا بذلوا فيه غاية جهودهم وعنوا حتى بتفاصيله المضنية . وكانت قدرتهم تلك القدرة التى بلغت فيهم حد العبقرية على تحمل الصعاب هى التى أدت إلى نجاحهم فى بناء الإمبراطورية ، ولكن تأسيس الإمبراطورية استنزف فى النهاية قواهم بتشتيت رجالهم فى خارج وطنهم مما سبب زوال دولتهم فى عنفوانها دون أن يخلفوا أية بقية من مجدهم الغابر .

وقد كانت مملكة آشور الشمالية مدينة بالكثير من أسباب حضارتها لإمبراطورية بابل الجنوبية حتى ليتعذر على الذى يوازن بينهما أن يترسم فوارق ظاهرة بين العادات فى البلدين . واندمج معظم تراث الآداب البابلية فى المكتبات الآشورية حتى لكأنه تراثهم من قديم . . وقد بلغت آشور فى خلال النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد أوج عظمتها . . . فاندفع الآشوريون غرباً نحو فينيقية وهناك لبسوا الثياب الأرجوانية التى ابتاعوها من تجار صور وامتطوا متن البحر ومن ثم بلغوا منتهى فتوحهم عند ما وصلوا إلى أبى الهول « مصر » ، ثم خلفتها بابل فى إمبراطوريتها نحو ثلاثة أرباع القرن الواحد كانت فى أثنائها قوة عالمية مرهوبة الجانب ، ثم لعبت بابل دورها الإمبراطورى — فترة من الزمن فى

عهد مليكها نبو يونصر وبختنصر . . . وقد خرت بابل صرعى أمام سلطان الفرس الغلاب سنة ٥٣٩ ق . م ومع ذلك فقد ظلت بها بعض الأسر المتمسكة بأهداب حضارتها وتقاليدها الدارسة تمسكاً تتجلى فيه روح المحافظة الشديدة المأثورة عن البابليين ويفصح بأجلى بيان عن حضارتهم العظيمة التى لم تنشأ طفرة [١] .

وبذلك دامت وحدة الشرق العربى الثانية قرناً وربع قرن تقريباً (٦٦٨ — ٥٣٩ ق. م) عندما غزا الفرس الشرق العربى .

---

(١) ر . كامبل طومسون « حياة نينوى و بابل فى عهدها الإمبراطورى » ، تاريخ العالم للسير جون هامرتون ، المجلد الثانى ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ترجمة عبد الحافظ معوض .

الفصل الثانى

وحدة اللغة والثقافة

أوضحنا فى الفصل الأول وحدة التاريخ للجماعة الإنسانية التى عاشت خلال بضعة آلاف من السنين – من قبل التاريخ وفى فجر هذا التاريخ حتى الفتح الإسلامى – فى المنطقة التى تشمل الشرق العربى بأكمله، كما أوضحنا أن هذه الجماعة الإنسانية، وقد عاشت تاريخاً واحداً مما كان فى الواقع تاريخ العالم فى تلك الفترة الطويلة لأن بقية الجماعات الإنسانية لم يكن لها إذ ذاك تاريخ معروف ثابت علمياً أو أنها لم تخلف آثاراً حضارية ساهمت فى تطوير تاريخ الإنسان – هذه الجماعة قد وضعت أساس أول أبجدية عرفها الإنسان بحكم الصلات الثقافية التى كانت تربط بينها، وقد حلل المتوفرون على تاريخ هذه المنطقة القديم ذلك بأنه فى مناجم سينا نرى مثلا آخر من الصلة الثقافية المتبادلة ؛ إذ كانت الدولة المصرية تستغل تلك المناجم وتستخدم فى ذلك عمالا من الآسيويين ، ففى وقت قريب من أوائل القرن الخامس عشر ق . م كان الكنعانيون يعملون فى مناجم الفيروز والنحاس فى سراديب الخادم فى سينا ، ومن المرجح جداً أنهم كانوا من الأسرى الذين كانوا يقيمون فى الدلتا . . . ولكنهم كانوا كنعانيين على شىء من التعليم ، ونحن مدينون لهؤلاء الناس باختراع عظيم : أنهم كتبوا نصوصهم القصيرة البسيطة بأبجدية هيروغليفية ،

فقد تركوا جانباً الطريقة المصرية المعقدة فى الكتابة بعلامات مصورة لا آخر لها، واختاروا علامة واحدة لكل حرف ساكن فى لغتهم؛ فمن كلمة « أليف » أى « ثور » استخدموا رأس ثور للتدليل على الحركة الصوتية السامية المسماة « أليف » ومن كلمة « بيت » أى « منزل » استخدموا صورة منزل لصوت ب؛ وهكذا أصبحت أليف و بيت، وباقى العلامات هى الأصل الذى أمدنا بالأبجدية التى نستعملها فى كتاباتنا بالحروف اللاتينية وغيرها من الأبجديات الحديثة [١] .

وقد وصل العلماء المحدثون إلى هذه النتيجة بعد أن عثروا على كتابات سينائية يعود تاريخها إلى عام ١٨٥٠ ق . م بناحية « سرابيط الخادم » بسينا وعلى كتابات أخرى بناحية جبيل فى لبنان يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، أى أنها أحدث عهداً من كتابة سينا بنحو ستة قرون فقرروا « أن الأبجدية الأولى وليدة الهيروغليفية وأن الذين أوجدوا الأبجدية إنما أخذوها منها . . . فاختزل مبتكرو الأبجدية الهيروغليفية وأوجدوا من المقاطع حروفاً كونت الأبجدية الأولى ، وقد اتجه الرأى فى بادئ الأمر إلى أن الخط الفينيقى مأخوذ من الكتابة الهيروغليفية رأساً ، وأن الفينيقيين الذين كانوا أول من عمم طريقة الكتابة بالحروف الهجائية قد أخذوا أصولها من مصادر مصرية ، إلا أن الهوة التى كانت تفصل بين الكتابتين ظلت كبيرة فكان من الصعب عليهم إيجاد تعليل معقول لوجودها وإيجاد جواب علمى مقنع عن المراحل التى قطعت بين الهيروغليفية

---

(١) جون ويلسون ، ص ٣١٣ ، نفس المرجع .

والهجائية الفينيقية حتى اكتشفت كتابة سرابيط الخادم بسينا وجبيل فى لبنان(١).

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن العمال الذين كانوا يعملون فى سينا قد ابتكروا أول أبجدية عرفها التاريخ وذلك عن طريق اختزال المقاطع الهيروغليفية والاكتفاء بالحروف الأولى من أسماء الصور ومن مجموعة تلك الحروف الأولى تكونت الأبجدية السينائية من اثنين وعشرين حرفاً(٢).

وفى عام ١٠٠٠ ق . م استطاع الفينيقيون — بواسطة تبسيط اللغة الهيروغليفية — أن ينشئوا أبجدية للكتابة وأغلب الظن أنهم استعانوا بما فعله الكنعانيون الذين يتتمون منهم إلى نفس الأصل السامى من تحويل الهيروغليفية إلى الأبجدية السينائية ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الآراميين العرب قد اقتبسوا من الفينيقيين العرب أبجدية عملية انتشرت بانتشار تجارتهم وغزت — فيما بعد — سائر أقطار الشرق العربى وحلت فيه محل الهيروغليفية والخط المسمارى البابلى(٣) ، كما نشأ « المسند » الحميرى فى جنوب الجزيرة العربية ،

---

(١) جواد على ، « تاريخ العرب قبل الإسلام » ، جـ ١ ص ٢٠٣ — وقد استند على بحث A.H. Gardiner الذى أسماه The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet ونشره عام ١٩١٦ فى The Journal of Egyptian Archeology

(٢) شيكاجو، ١٩٣١ Martin Sprengling: The Alphabet, its rise and developement from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931.

(٣) أشار « فيلبى » ، نفس المرجع ص ٤٣ — ٤٤ إلى أن الحفريات فى رأس شمرا بسوريا كشفت نقوشاً باللغة الآرامية مسجلة بالأختام =

وكان ظهور الأبجدية الآرامية والمسند الحميرى فى وقت واحد وهو عام ٨٠٠ ق . م تقريباً ، ولما هاجر الأنباط العرب حوالى عام ٥٠٠ ق. م من وسط الجزيرة العربية إلى شمال شرق سينا وعاشوا فى المنطقة التى تفصل بين بلاد الشام وبلاد العرب وتمتد من الفرات إلى البحر الأحمر كانوا يتكلمون العربية ولكن يكتبون بالآرامية ، وقد طور الأنباط الخط الآرامى فى القرن الثالث الميلادى إلى الخط الذى استخدم فى تدوين اللغة العربية الشمالية ، لغة القرآن الكريم .

وقد نشأت فى القرن السادس قبل الميلاد دولة التدمريين نسبة إلى مدينة « تدمر » شمال شرق دمشق ، وكان التدمريون العرب كالأنباط يتكلمون العربية ويكتبون الآرامية .

ونشأت دولة مناذرة الحيرة فى أواخر القرن الثالث الميلادى ، والحيرة تقع على الفرات على مقربة من بابل وقد استخدم المناذرة العرب — الذين يرجح الرأى العلمى أنهم من عرب الشمال بدليل أن لغة الحيرة تنطبق على العدنانية — الخط النبطى ، وقد ظلت هذه الدولة العربية قائمة حتى عام ٦٣٢ عند ما ضمت إلى الوحدة العربية الكبرى ، وفى عهدها تغلب العرب بقيادة حنظلة بن ثعلبة على الفرس فى المعركة المعروفة بيوم ذى قار التى روى أن النبى « صلعم » قال عندما بلغه انتصار العرب فيها ما معناه : « إن

= الأسطوانية أبجدياً وأن نقوشاً كنعانية أبجدية فى جنوب فلسطين تعود إلى القرن الخامس عشر ق. م وأن الأبجدية السينائية تعود فى رأى « ليونارد وولى » إلى عام ٢٠٠٠ ق . م .

ذلك اليوم هو أول يوم انتصف فيه العرب من العجم »، وقد أدت هذه الدولة خدمة كبيرة للغة العربية بما احتضنت من الشعراء كما أنه كان لها فضل كبير فيما بعد فى تعليم الخط العربى وفى إغناء اللغة العربية بكثير من الألفاظ الفارسية التى تعبر عن أشياء لم يكن العرب يعرفونها[1].

وقد توالى ظهور الدويلات فى شمال الجزيرة العربية فى القرنين السادس والسابع قبل الميلاد ، فنشأ الغساسنة فى الأرض التى تقع شرق نهر العاصى والأردن وتمتد من شمال العراق إلى خليج العقبة ، ونشأ الكنديون فى الأرض التى تضم معظم حدود نجد مما يلى الحجاز شرقاً وتمتد إلى شمال الشام والعراق .

وفى خلال ذينك القرنين السادس والسابع « كانت اللغة العربية التى نسميها الآن الفصحى هى لغة الكلام فى العالم العربى من الأردن إلى الحدود الفارسية ، ومن مكة إلى جبل سنجار فى شمال العراق ، وكانت هذه اللغة للعرب رمز وحدتهم ، وكانت سوق عكاظ السنوية حيث كانت تجرى المباراة الشعرية للعرب بمثابة الألعاب الأولمبية للإغريق »[2].

وقد مهد لظهور الدولة العربية الكبرى ضم بقية الدويلات فى شمال الجزيرة العربية وهى دويلات التدمريين والمناذرة والغساسنة والكنديين . وكانت مكة قد تولت زعامة العرب ، واستقرت تلك الزعامة

---

(١) محمد مبروك نافع ، نفس المرجع ، ص ١٣٥ .

(٢) ص ٧٧ . Nevil Barbour, Nisi Dominus.

استقرارها التاريخي الخالد واكتسبت مجدها الروحي بنزول الرسالة على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عام ٦١٠ م بمكة ثم بهجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة عام ٦٢٢ .

ولم تكد تنقضى بضعة أعوام حتى برزت إلى الوجود دولة عربية استوعبت جميع الجزيرة العربية فى حياة النبي وخلافة أبي بكر الصديق ثم اتجه المسلمون غرباً إلى مصر فضمت فى عام ٦٤٢ .

وذهب بعض المؤرخين العرب المحدثين الذين توفروا على دراسة تاريخ عمرو بن العاص إلى أنه سلك طريقاً بدوياً يستطيعه البدو واستطاعوه فى قديم الزمن ولا يزال سكانه منذ عرفه التاريخ بدواً يشعرون بعصبية القرابة لهذا الفاتح الجديد . . وأن العرب كانوا يسكنون مدينة قفط قبل الإسلام، وقال سترابون : إن نصف سكانها منهم وربما أخذوا كلمة قبط من النسبة إلى هذه المدينة القديمة فى طريق الحجاز . . . وإن العرب هم أول من تسمى بالمصريين ولم يأنفوا من مساواة أبناء البلاد بالانتساب إليها كما أنف الرومان واليونان من قبلهم . . .

وكانت لليشموريين فى شرق الدلتا مواقع استطلاع وعبور ؛ إذ كانوا يسكنون المراعى الواسعة على تخوم الصحراء بين البحيرات الشمالية وأودية الجنوب ، وكانوا عرباً منحدرين على أرجح الأقوال من سلالة العمالقة الأقدمين ، وكانوا يعاونون العرب الفاتحين كما عاونهم عرب الصحراء فى الشام على اختلاف العقيدة والمقام ، وإذا لاحظنا أن بادية الفيوم كان يسكنها أناس يتكلمون بلهجة يشمورية علمنا أن أقسام

البادية العربية لم تتغير كثيراً من قديم الزمن . وأن عمرو بن العاص قصد إلى الفيوم قبل فتح منف على علم بأصول هذه السلالة [١] .

ومما له وثيق الصلة بهذا البحث الخاص بمدى شعور المصريين — قبل قدوم العرب المسلمين — بوحدة الثقافة والفكر والروح رغم اختلاف الدين ما قرره هؤلاء المؤرخون بشأن حقيقة شخصية « المقوقس » الذى تكرر ذكره فى جميع الوثائق الخاصة بضم مصر إلى الوحدة العربية الكبرى ، إذ قرروا « أن معظم المؤرخين متفقون منذ زمن بعيد على أن المقوقس لم يكن اسم علم ولكنهم حاروا فى الجزم بحقيقته بين أن يكون لقباً أو عنوان منصب من مناصب الدولة ، أما الواقع فيظهر أنه لم يكن هذا ولا ذاك وإنما كان الرجل صاحب عنوان يمكن أن يسمى بالعمدة ويخطئ بعض

---

(١) عباس محمود العقاد « عمرو بن العاص » ص ٧٧ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ؛ وذهب عباس عمار ، نفس المرجع ، إلى أنه « يأتى الإسلام وسيناء ينزل على حدودها ويمتد إلى بعض نواحيها الشرقية قبائل كهلانية من غسان ولخم وجذام فلما امتدت الفتوحات الإسلامية شمالا كان لا بد أن يتفرق النصارى من أولئك العرب ومنهم غالبية غسان فينزل جزء منهم أرض الجفار فى شمالى سينا حتى كان منهم حكام تنيس نفسها ، وقد ذكر مؤرخو الفتح الإسلامى لمصر كيف أن الحصون على طريق الرمل الشمالى فى سينا كرفح والعريش والواردة والبقارة وغيرها قد سكنها قوم من هؤلاء العرب المتنصرة يؤدون المال للمقوقس . كما ذكروا أن النجدة التى أرسلها عمر بن الخطاب عبر وسط سينا لمساعدة عمرو بن العاص قد قابلت جمعاً هائلا يقرب من ثلاثة آلاف سألوهم فإذا هم من عرب غسان ولخم وعاملة » ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ . وقد استند على كتاب « فتوح مصر والإسكندرية » لأبى عبد الله الواقدى .

المؤرخين فيسمونه نائب الملك واسمه الأصيل جرجس بن مينا بركيوبس»(١).

وقد دام حصار حصن «بابليون» سنة وبضعة شهور ، وتقدم العرب إلى منف فى شتاء عام ٦٤٠ ، وجاء فى الروايات العربية أن الزبير بن العوام تسلق سور الحصن الرومانى فدب الذعر فى قلوب الرومانيين وتم التسليم فى ٩ من أبريل عام ٦٤١ وسلمت الإسكندرية فى ١٠ من ديسمبر عام ٦٤١ وقد ثبت تاريخياً أن الأسقف القبطى المصرى فى الإسكندرية أصدر أمره إلى أقباط مصر بألا يقاوموا العرب(٢).

واستقر الأمر لعرب الحجاز فى مصر ، استقروا فى الأرض التى سبقهم إلى الاتصال بها والهجرة إليها ، والوفود عليها والإقامة فيها منذ عصر ما قبل التاريخ ، ثم منذ فجر تاريخ العرب من أكاديين وآشوريين وكلدانيين وعاموريين وهكسوس وعبرانيين — أدوميين وإسرائيليين — وكنعانيين وفينيقيين وأنباط وتدمريين ، ولعل هذا الامتزاج التاريخى الطويل مدى آلاف السنين بين جنوب غرب آسيا وشمال شرق إفريقيا مما جعل أهل المنطقة كلها شعباً واحداً ، يحس بشعور واحد متجاوب ، هو الذى جعل أقباط مصر يستقبلون قدوم العرب بمثل ذلك الترحاب رغم اختلاف الدين ، بينما وقف هؤلاء الأقباط — قبل ذلك

---

(١) عباس العقاد ، المرجع السابق ص ١١٧ . وقد استند على كتاب المؤرخ أ . ل . فشر عن تاريخ الأمة القبطية .

(٢) George E. Kirk : A Short History of the Middle East, London, 1952, p. 16.

بقرنين اثنين – موقفاً عدائياً جباراً من حكام مصر المسيحيين البيزنطيين عقب نفى البطريق المصرى عام ٤٥١ م وموته فى المنفى عام ٤٥٤ وتعيين أحد أعوان البيزنطيين – بروتيريوس – خلفاً له بين عامى ٤٥٢ و ٤٥٧ رئيساً لكرسى الإسكندرية، إذ أن المصريين أبوا الرضوخ لذلك واختاروا مصرياً لتولى الكرسى البطريركى هو تيموثاوس، ولما عزل بالقوة اشتعلت ثورة المصريين وكادوا يجهزون على الإسكندرية ثم اغتالوا « بروتيريوس » صنيعة الغاصب وجروا جثمانه فى طرقات الإسكندرية وأحرقوه وذروا رماده فى الهواء .

وتابع العرب تقدمهم غرباً فانطوت على التوالى برقة وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب ، ولم تكد تنقضى ثلاثة وستون عاماً حتى انهارت أسطورة الدولة الرومانية الشرقية البيزنطية .

وقد أجمع المؤرخون الذين توفروا على دراسة هذه الفترة من تاريخ الشرق العربى على أن وحدة اللغة والثقافة كانت العامل الأول فى تثبيت قواعد تلك الدولة العربية الكبرى التى امتدت من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى بل تجاوزت الشرق العربى بحدوده الحالية شرقاً إلى الهند وشمالا إلى إسبانيا وفرنسا فقرر أحدهم عن بربر شمال إفريقيا الذين سرعان ما اندمجوا فى الوحدة العربية أنهم : « مجموعة بشرية تنتمى إلى الفرع الحامى ذى اللون الأبيض ويرجح أنها كانت فى عصر ما قبل التاريخ من نفس الجنس السامى، ويقرر أن سواد البربر الذين كانوا يسكنون بعيداً عن الشاطئ لم يتأثروا بالحضارة الرومانية أو البيزنطية لأنها حضارة غريبة عن

أولئك الإفريقيين الرحل، وأن الإسلام قد امتاز بطابع اجتذب البربر، وأن العرب وثقوا صلاتهم بأبناء عمومتهم فتحققت معجزة الإسلام فى استعراب اللغة البربرية وتحويل البربر إلى دين الإسلام، وأن دم العرب وجد مجارى « بشرية » جديدة صالحة لتغذيته كما وجدت اللغة العربية حقلا واسعاً للامتداد وتمكين الإسلام من قواعد جديدة تعينه على الصعود إلى سيادة العالم »[1] .... « أصبحت العربية التى كانت قبل الإسلام مجرد لغة للشعر، لغة دين، ثم أصبحت فى القرن العاشر وسيلة مرنة للتعبير عن الفكر العلمى ونقل الآراء الفلسفية بطريقة رائعة لم يسبق لها مثيل، وفى الوقت نفسه أرست قواعدها كلغة دبلوماسية ولغة تبادل مهذب بين آسيا الوسطى وعبر شمالى إفريقيا بأجمعه إلى إسبانيا، ومنذ ذلك الوقت عبر أهل العراق وسورية وفلسطين ومصر وتونس والجزائر ومراكش عن أفضل أفكارهم بلغة العرب »[2] .

وقد سبق أن أشرنا فى مقدمة هذا الكتاب إلى أن الرأى المستقر علمياً

---

(١) The Arabs, A Short History

فيليب حتى، ص ٦١ — ٦٢، ١٩٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٨٨ — ٩٣ . وقد أشار إشارة خاصة إلى أنه بعد أن استولى العرب على سمرقند عام ٧٠٤ نقلوا صناعة الورق إلى بغداد فأنشئت أول دار لصناعته بها قبل نهاية القرن الثامن كما أنشئت فى مصر حوالى عام ٩٠٠ وفى مراكش عام ١١٠٠ ص، ١٠٣ .

أن الأبجدية الليبية أى لغة بربر ليبيا تنتسب إلى أصل فينيقى ؛ إذ أن العرب الإفريقيين قد اتصلوا من قبل بإفريقيا اتصالا طويلا وتركوا الطابع العربى على أبجدية أهل البلاد[١] وذهب بعض علماء اللغات إلى أن هذه اللغة الليبية تمت بأصل إلى لغة ثمود التى كانت مستخلمة فى جزيرة العرب[٢] .

وقد سجل أحد المستشرقين عن بربر شمال إفريقيا أنهم « تغيروا تغيراً عظيماً لاختلاطهم بالعرب حتى ليستحيل تمييزهم فى أغلب الأحيان ، فهم لم يعودوا يذكرون شيئاً عن أصلهم الحقيقى أو لغتهم أو عاداتهم »[٣] .

وذهب آخر إلى أنه : « فى سورية وفلسطين لم ينقض القرن التاسع حتى اختفت اللغة الآرامية ، وفى مصر ، فى القرن العاشر ، كتب القسس الأقباط بالعربية لكى يفهمهم أقباط مصر . وكان العامل فى انتشار الثقافة العربية بمصر — وهى الثقافة التى تركت طابعها عليها حيث خابت الثقافة اليونانية التى سبقتها فى إدراك نفس الأثر — يعود إلى سابق استقرار العرب الرحل فى أنحاء مصر ، فإن بطوناً من قبائل ، بل قبائل بأكملها ، ارتاحت إلى مزايا الحياة المستقرة ، ولذلك طعم أقباط مصر بتيار قوى من الدم العربى . وكان يبدو جلياً أن العرب قدموا فى هجرات ضخمة

---

(١) J. Halévy, Essai d'Epigraphie Libyque — باريس ، ١٨٧٩ .

(٢) Litmann, L'Origine de l'Alphabet Libyque, La Revue Asiatiqu مجلد ص ج ٤ ، ص ٤٢٢ .

(٣) Yver ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ٣ ، ص ٥٠٨ .

وصلت إلى السودان ، واندمج العرب الرحل فى حضارة وادى النيل القديمة وبقيت لهم لغتهم العربية ، فالعرب أصبحوا نيليين ولكن القبط استعربوا »[١] .

ولم يتردد أحد المؤرخين الأمريكيين فى أن يسجل أنه : « إذا نحن نظرنا إلى العلم العربى من وجهة نظر التطور الإنسانى عموماً وجدنا أن الثقافة العربية كانت ذات أهمية بالغة لأنها تؤلف الصلة الأساسية بين الشرق الأدنى وبين الغرب ، ثم بين الشرق الأوسط وبين آسيا البوذية ، إن الثقافة العربية كانت الثقافة الزعيمة منذ القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر ثم بقيت على غاية من الأهمية ثلاثة قرون أخرى ، ولنذكر أن ستة قرون ليست شيئاً يسيراً ، وإذا نحن سمينا هذه الثقافة إذن ثقافة الشرق الأوسط فحسب فإننا نكون قد قرنا شيئاً غريباً ، إذ أن تلك الثقافة امتدت فى العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى ...... وفى أثناء العصور الوسطى كانت اللغة العربية فعلا أكثر اللغات انتشاراً ، ولم تتكلم العربية وتكتب بها شعوب من أمم مختلفة فى الشرق والغرب فحسب ، بل شعوب تدين بأديان متعددة »[٢] .

وقد استقر رأى علماء الأجناس على أن من العسير فى معظم المناطق التى وصل إليها العرب التمييز بين العربى الأصيل والمستعرب[٣] ، واستقرت أسس هذه الدولة العربية ، وذابت فى قوميتها العناصر البشرية التى تعيش

---

(١) كيرك ، نفس المرجع ، ص ٢٣ .

(٢) جورج سارتون ، نفس المرجع ، ص ٣٨ — ٣٩ — ٤٤ — ٤٦ .

(٣) بيتار ، نفس المرجع ، ص ٣٥٢ .

فيها كما انتهى التطور التاريخى الطويل إلى استكمال مقومات لغتها الواحدة على هذا المدى الشاسع بين المحيط الأطلسى الغربى والخليج العربى وحدود إيران شرقاً — كما توحدت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتكونت حولها تيارات فكرية متجانسة وثقافة مشتركة بحكم الاتصال المباشر المتصل عبر شبه جزيرة سينا بين الجزيرة العربية والمغرب العربى.

وقد قرر المؤرخون أن سيناء أصبحت « طوال القرون الإسلامية الأولى طريق مرور فقط تعبرها القبائل بشكل لم تعهده فى فترات التاريخ السابقة. وكان من الأسباب الهامة الدافعة إلى تدفق القبائل إلى مصر عبر شبه الجزيرة مجىء الوالى الجديد الذى كان يرافقه جيش يقرب من ٢٠٠٠٠ مقاتل غالبيتهم من العرب . . . والذى كان وجوده فى الحكم مشجعاً للقبائل التى ينتمى إليها على أن تهاجر إلى مصر كما يدل على ذلك تحليل القبائل المختلفة التى هبطت مصر فى عهود الولاة المتتابعين . . . . . . ويستخلص مما كتبه القلقشندى أن قبائل جذام ولخم وبلى وكثيراً من القبائل القرشية كانت أبرز الهجرات التى عبرت سيناء مع الفتح الإسلامى. ومن الهجرات البارزة التى قطعت سيناء هجرة قيس وعيلان عام ٧٢٨ ميلادية جاءت من أعالى نجد فى ولاية هشام بن عبد الملك إذ نقل منهم نحواً من ٣٠٠٠ . . . وهجرة أولاد الكنز من ربيعة الذين كانوا ينزلون اليمامة أولا ودخلوا مصر أيام المتوكل على الله عام ٨٥٤ فى عدد كبير » (١)

(١) عباس عمار ، نفس المرجع ، ص ١٠٤ ، ١٠٧ — وقد استند على كتاب Macmichael الذى أسماه A History of the Arabs in the Sudan وقد =

ولما بدأت العناصر غير العربية تحكم مصر بعد ذلك ، وبالتالى لم يعد هؤلاء الحكام يحابون العرب كما حدث أثناء حكم أحمد بن طولون (٨٧٠ - ٨٨٤ م) بدأت القبائل العربية التى كانت قد هاجرت إلى مصر تهاجر من جديد إلى شمالى إفريقيا وإلى السودان .

ولما تولى الفاطميون حكم مصر عام ٩٧٣ عاد الحكم العربى الصميم إلى مصر ورأى الخلفاء الفاطميون فى القبائل العربية المستقرة بسورية على حدود مصر الشرقية مصدر خطر على حكمهم الجديد فى شمالى وادى النيل فانتهوا إلى تشجيع تلك القبائل على الهجرة إلى مصر ، ولذا نرى العزيز بالله (٩٧٦ - ٩٩٦ م) يدعو بطون قيس من بنى سليم وبنى هلال ،ونرى الناصر للدين أبا محمد اليازورى وزير المستنصر (١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) يدعو بطون طيء التى كانت تسكن حول غزة فى جنوب فلسطين ويسهل لهم الاستقرار فى مديرية البحيرة ، وقد شجعت هجرة بطون أخرى فتزايد عدد العرب الذين انتقلوا إلى مصر فى عهد الفاطميين . . . . وقد تغير مركز سيناء ابتداء من القرن الرابع عشر - كما يقرر المتوفرون على تاريخ هذه المنطقة من المؤرخين المصريين

=أشار عباس عمار فى ص١٠٦ أن المرجع الرئيسى - سيما فى الهجرات التى حدثت منذ أيام الأمويين حتى نهاية حكم الأيوبيين - هو « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»الذى كتبه المقريزى وعثرت عليه الحملة الفرنسية فأخذت النسخة معها ولخص Quatremère ما فيه فى كتابه Mémoire sur les Tribus Arabes établis en Egypte ثم أصبحت هذه الوثيقة عمدة الكتاب الأجانب عن القبائل العربية فى مصر ينقلون عنها نقلا يضكاد يكون حرفياً .

فأصبحت منذ ذلك التاريخ منطقة تلجأ القبائل العربية إليها وتستقر بها بعد أن كانت مجرد قنطرة تعبرها تلك القبائل إلى وادى النيل.

وقرر مؤرخ عربى آخر أن المهاجرين العرب جاءت جموعهم « فى قلة بعد فتح مصر ثم أخذت هذه القلة تتزايد تدريجياً حتى تحولت إلى موجات متلاحقة من الفارين من شمال الوادى وذلك فى القرنين السابع والثامن من الهجرة — الثالث عشر والرابع عشر الميلادى — ويرجع تطور الخروج من شمال الوادى فى موجات من الفارين إلى ما أصاب القوم من اضطهاد وعدوان المماليك الذين تملكوا زمام الحكم فى مصر بعد انتزاعه من العرب أصحاب السلطان أصلا والذين نظر إليهم المماليك ، وبخاصة المماليك البحرية ، كعنصر غير مرغوب فى بقائه فى البلد الذى آلت إليهم مقاليد حكمه وذلك لخوف المماليك وقلقهم من قيام العرب والعربان بإشاعة الفتن والثورات . . . . وجاءت إلى جنوب الوادى فى ركاب هذه الهجرات مختلف العقائد والمذاهب الفكرية مع أتباع الفاطميين من جند وغيرهم . . . . واستطاع المهاجرون المحافظة على تقاليدهم العربية الموروثة بفضل تتابع الهجرات المتلاحقة والتى كانت تحمل دائماً فى ركابها دماً عربياً جديداً [١]. . . . . وكان من اليسير أن يستولى العرب على مشاعر سكان السودان[٢] .

---

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل ، « معالم تاريخ سودان وادى النيل » ، ١٩٥٥ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٨ — ٥١ .

وقرر أحد المؤرخين العرب المتوفرين على دراسة تاريخ السودان الشمالى أن هناك ثلاثة طرق سلكها العرب للوصول إلى السودان ، أولها الطريق الشرق عبر البحر الأحمر . . . فقد كانت المؤثرات السامية تتدفق من الجزء الجنوبى لجزيرة العرب أكثر من تدفقها من الجزء الشمالى ؛ وذلك لوفرة السكان فى بلاد اليمن من جهة ولصغر مساحة البحر من جهة ثانية ولبراعة السكان فى الملاحة من جهة أخرى ، وثانيها الطريق الشمالى الذى كان أهم الطرق التى سلكتها العناصر القوقازية إلى السودان فى العصور التاريخية القديمة والحديثة ؛ لأن كثيراً من القبائل العربية كانت تهاجر إلى مصر أولا عبر برزخ السويس ثم تصعد إلى الجنوب ، وثالثها الطرق الليبية التى تصل السودان الشمالى الغربى بصحراء ليبيا الواقعة غربى النيل ، وبعض هذه الطرق يشمل القطر المصرى وبرقة ، فهو جزء من الطريق الشمالى ، وبعضها يجىء من تونس وطرابلس وفزان ، وبعضها من الصحراء رأساً . . . . حمل إلى السودان جماعات ليبية فى عصر متأخر مثل الزغاوة والجرعان والبدايات [1].

وقد قسم هذا الفريق من المؤرخين الجماعات العربية فى السودان إلى قسمين : جعليين وجهنيين والأولون يمثلون العرب الشماليين والآخرون الجنوبيين .

وقد أسست — إلى جانب المجموعتين العربيتين الكبيرتين الجعلية والجهنية — ممالك وسلطنات عربية فى السودان الشمالى ، بعد أن توالت

---

(١) محمد عوض محمد : « السودان الشمالى — سكانه وقبائله » ص ٧ — ٨ (١٩٥١) .

هجرات العنصر العربى ، واشتد نفوذه ، واتسع نطاق الثقافة العربية ، فمن الثابت تاريخياً أن العرب أنشأوا عام ١٤٧٤ مدينة أربجى على النيل الأزرق ، ولم تكد تنقضى بضعة أعوام حتى قامت مملكة الفنج فى عام ١٥٠٤ . . . . . ومن المهم أن نذكر أن دولة الفنج منذ بدء تأسيسها كانت دولة إسلامية لغتها العربية وليس لها أية لغة أخرى . . . وفى الركن الشمالى الشرقى من مديرية كردفان نشأت مملكة نقلى فى أواسط القرن السادس عشر . . . ولها فى تاريخ العروبة فى السودان شأن خطير ، لأنها مكنت للعناصر العربية من التوغل فى هذا الربع الشمالى من جبال النوبة . . . والظاهر أن أمراء هذه المملكة كانت لهم سياسة مرسومة فى نشر الإسلام والعروبة فى هذه الجبال الوعرة ، وكانت هذه السياسة ترمى إلى تحقيق هدفها عن طريقين : الأول وهو ما يخطر بالبال لأول وهلة ، بنشر الإسلام والثقافة العربية والتزاوج بين القبائل النوباوية ، ولكن الأمراء فى الغالب لم يلبثوا أن رأوا هذه الطريقة لا تفى بالغرض بالسرعة اللازمة ولذلك التجأوا إلى الطريقة الثانية ، وهى تشجيع القبائل العربية على المهاجرة والاستيطان فى هذا الركن من السودان ، فأخذت جماعات من الجعليين تهاجر من الأقاليم النهرية وكذلك جماعات من البديرية والجوامعة ، وبوجه خاص بطون بأجمعها من قبيلة الكواهلة وكنانة ، وبفضل هذه السياسة انتشرت العروبة فى جبال النوبة الشرقية[1] .

وقد انصهرت وحدة اللغة والثقافة فى بوتقة الآلام التى عاناها الشعب

(١) المرجع السابق ص ٢٥٣ — ٢٥٤ — ٢٥٨ — ٢٦٠ .

العربى من العدو المشترك الذى توالى عدوانه المنظم على هذا الشعب منذ بدء القرن الحادى عشر ، عدواناً اتخذ — فى الظاهر — أشكالا مختلفة ولكنه فى الواقع التاريخى العلمى لم يكن يستهدف إلا غرضاً واحد هو تفتيت وحدة الشعب العربى .

١ — الحروب الصليبية

وكان أول شكل من أشكال العدوان على الشعب العربى هى الحروب الصليبية التى بدأت أولاها فى عام ١٠٩٦ ووجهت إلى فلسطين ثم إلى لبنان ثم إلى مصر ثم إلى سوريا ثم إلى مكة والمدينة ، وقد علق مؤرخو الحروب الصليبية على هذه الحملة بأن «الاستراتيجية العليا لحملات القرن الثالث عشر كانت مهاجمة مصر وهى رأس البلاد الإسلامية وقلبها والعمل منها على إعادة أورشليم وضمها إلى أحضان المسيحية بعد ما فقدتها فى مقابل تسليم ما تستولى عليه من بلدان فى أراضى سلطان مصر . . . وفى الحملتين الرابعة والخامسة كانت الخطة العليا هى الهجوم البحرى على مصر والتهديد بالاستيلاء على قطعة من أراضيها يستعيضون فيما بعد عنها أورشليم وغيرها من الثغور الفلسطينية بشروط صلح يرتضيها المحاربان ، وأهم من ذلك أن الحملة الخامسة مشروع بابوى كامل باركتها الكنيسة الأم فى روما ولذلك كان معظم رجالها ممن استأجرهم رجال البابا من الألمان وولى قيادتها نائب عن البابا وهو بيلاجيوس فلم يقدها ملك من ملوك المسيحية أو أمير كما

كان الحال فى الحملات السابقة»[١] .

وفى عام ١٢٦٧ حاول الصليبيون غزو تونس بقيادة لويس التاسع ولكنه أصيب بالطاعون ومات ودفن فى قرطاجة ، وقد قام الصليبيون بعد ذلك بنحو قرن ، أى عام ١٣٩٠ بمحاولة خائبة إذ هاجموا المهدية فى تونس بقيادة لويس ده بوربون .

وقد استقر رأى مدبرى السياسة المسيحية على عقد حلف مع المغول التتر الذين كانوا — رغم بقائهم على الفطرة المتوحشة إذ ذاك — قد امتد نفوذهم وأصبح يهدد الشرق العربى ، وكان ذلك الحلف مع أولئك البرابرة يستهدف القضاء على عرب الشرق الذين كانوا قد تعاهدوا مع الصليبيين على شروط معينة فأرسل البابا أينوسنت الرابع مندوبه جى ده بيانو كا بربنى عام ١٢٤٥ — بعد أن فقد الصليبيون القدس — إلى منغوليا للتمهيد لعقد ذلك الحلف ، وبعد ثلاثة أعوام عاد القديس لويس فأرسل مندوباً للتفاوض على عقد ذلك الحلف[٢] ، ولم تسفر تلك المفاوضات عن نتيجة عملية ، إلا أنه فى عام ١٢٥٣ م قام المغول بغزوة قادها « هولاجو » حفيد جنكيز على الشرق العربى ، فاستولى عام ١٢٥٨ على بغداد ونكل بأهلها وقضى

---

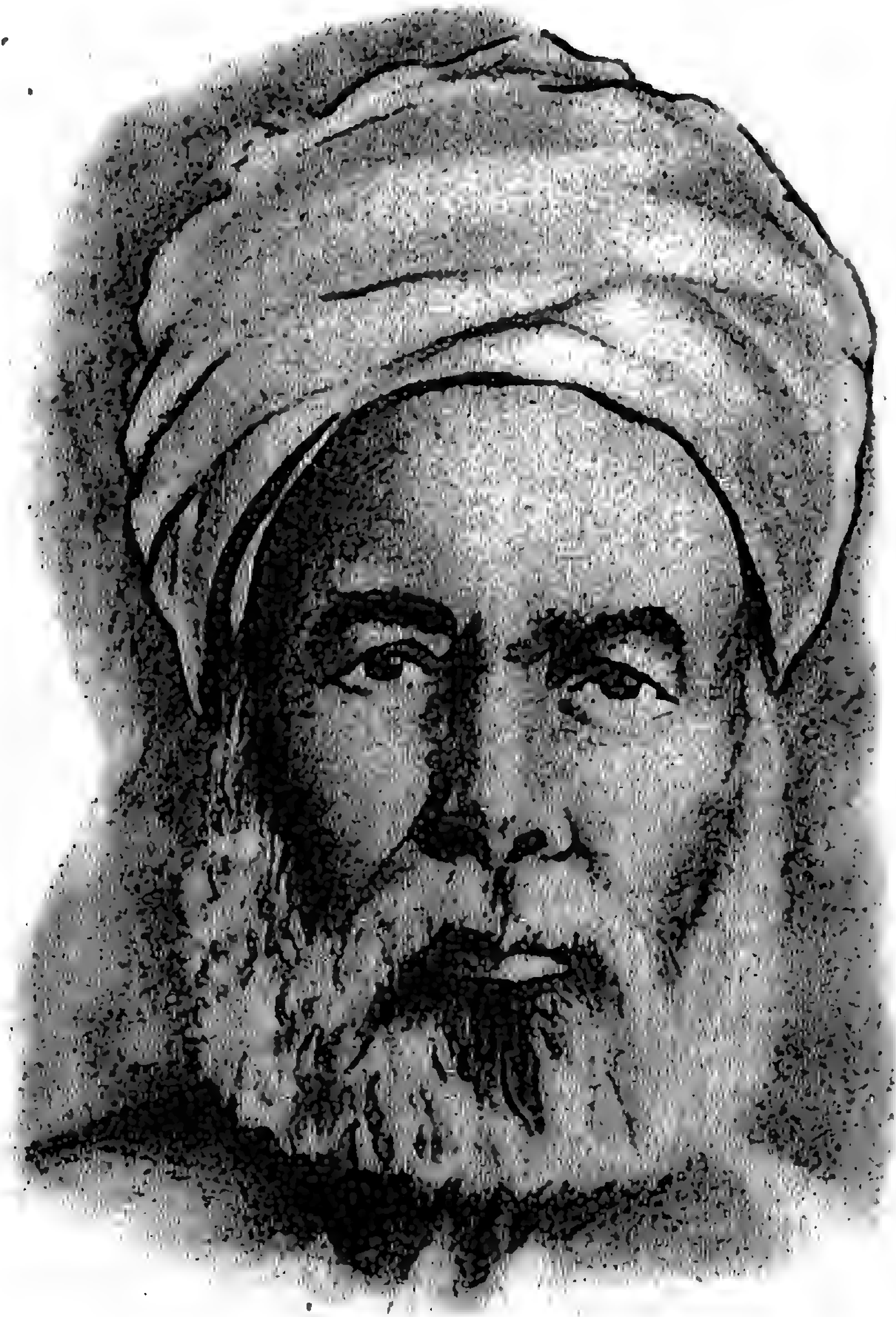
(١) Oliver of Paderborn: The Capture of Damietta تعليق عبد الرحمن زكى ، المجلة التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥٠ وهو تعليق على مخطوطة أوليفر بادربون التى نشرتها جامعة بنسلفانيا عام ١٩٤٨ والمخطوطة لرجل من رجال بيلاجيوس اشترك فى الحملة الخامسة تلبية لدعوة البابا أينوسنت الثالث .

(٢) جورج كيرك ، نفس المرجع ، ص ٥٠ .

على الخلافة العباسية فيها وقد توغلوا فى سورية وخربوا حلب ولكن المصريين تغلبوا عليهم عام ١٢٦٠ فى عهد الظاهر بيبرس أحد سلاطين دولة المماليك البحرية التى حلت محل الدولة الأيوبية ، وقد تعاون الصليبيون إذ ذاك مع المغول الغزاة إلا أن « بيبرس » بين عامى ١٢٦٥ و ١٢٦٨ م استطاع أن ينتزع يافا والناصرة ، وفى عهد خلفه قلاوون فقد الصليبيون حلب ثم فقدوا بعد عامين عكا وكانت آخر معاقلهم فى الشرق العربى ، وقد تعاون الإسماعيليون مع الصليبيين فأجهز « بيبرس » على نفوذهم واستولى على حصونهم واضطر الكثيرون منهم إلى الهجرة إلى مصر والفناء فى القومية المصرية .

ب — الاستعمار الأوربى

قبل أن تنقضى بضعة أعوام على محاولة الصليبيين بقيادة لويس ده بوربون غزو تونس فى عام ١٣٩٠ حاول العدو المشترك أن يتستر تحت شكل آخر من أشكال العدوان لتحقيق نفس الغرض وهو تفتيت وحدة الشعب العربى ، وقد سبقت البرتغال غيرها من الدول الأوربية فى ادعاء الرغبة فى كشف شاطئ إفريقيا الغربى فأوفدت هنرى الملاح ، ولكن المؤرخين الأوربيين لم يترددوا فى أن يقرروا أن « هدف هنرى العام كان استمرار الصليبية بواسطة التغلب على دار الإسلام حربيا وتجاريا وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدى المسلمين ، والاتصال — فى جنوبى



الشيخ محمد عبده

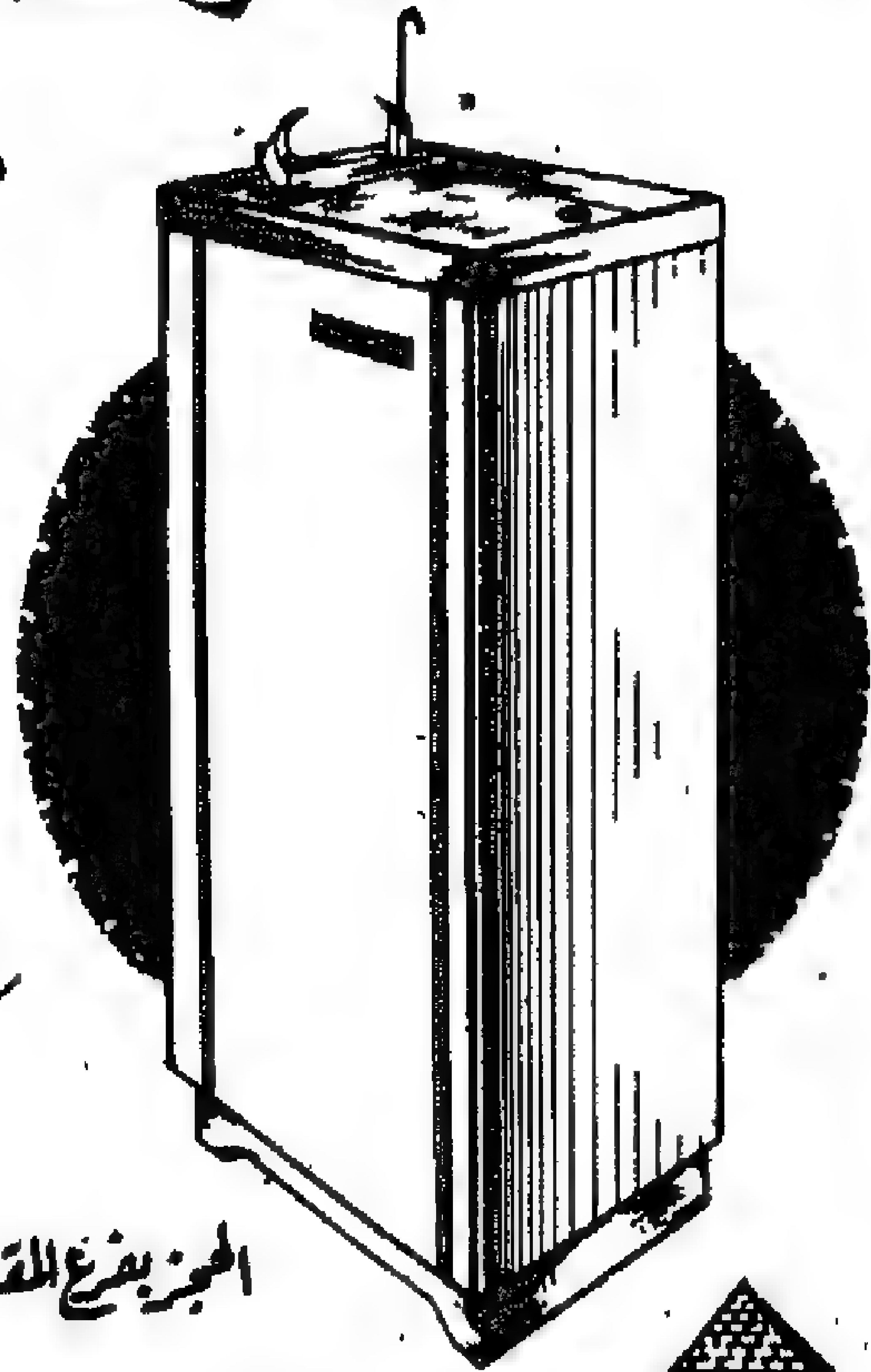

صلاح الدين الايوبى

مياه مثلجة في كل وقت

مُبرِّد المياه.. كولدير

سعة ٦٥ لترا في الساعة

طراز ٦٤ **فخر الصناعة العربية**



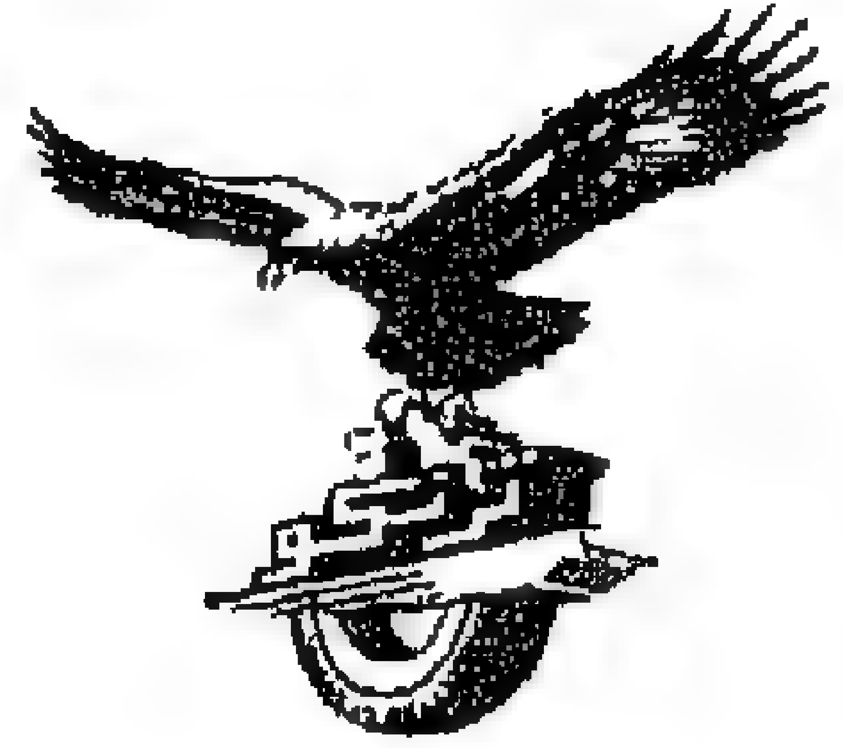
- للشركات والمؤسسات
- لأماكن الخدمة العامة
- المستشفيات
- المواصلات العامة
- للفنادق
- للأندية والمصانع

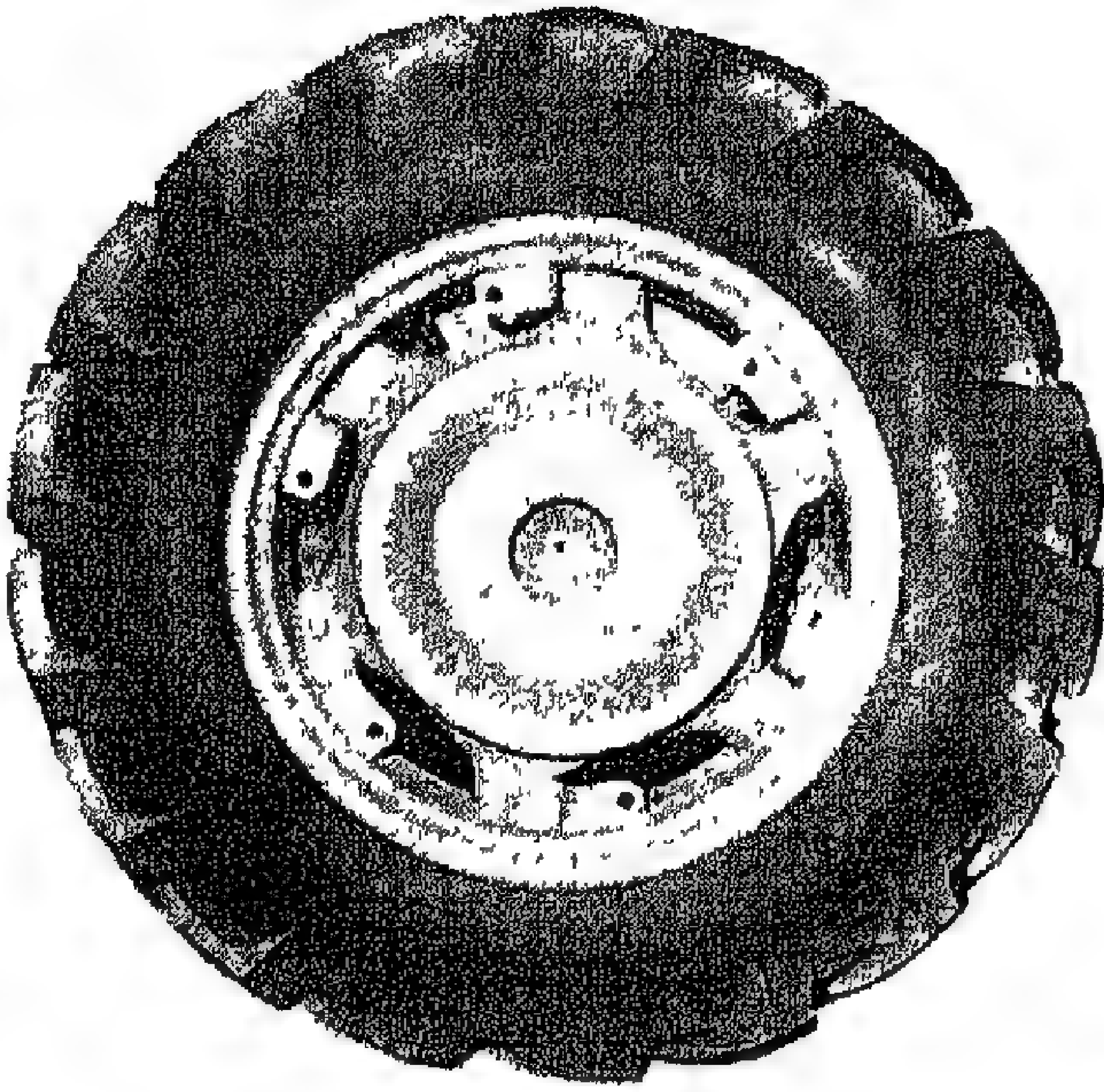
التسليم بأولوية الحجز

انتاج مصانع
شركة النصر للهندسة والتبريد
كولدير
ساقية مكي - الجيزة

الحجز بفرع المقاولات: ٤٤ عبد الخالق ثروت ت ٩١٠٢٤٤

سرى





شركة النقل والهندسة

تقدم إنتاجها **الجديد**

الاطارات الخلفية للجرارات الزراعية

التى يبدأ انتاجها قبل نهاية سنة ١٩٦٤

وقريباً جداً

تظهر اطارات ١٢٠٠ الخاصة بسيارة النقل فى الأسواق

الصحراء – بجون نجاشي الحبشة للتعاون على مهاجمة المسلمين من الجنوب»(١)

وتوالى تسلل الاستعمار الأوربى إلى الشرق العربى ، فتسللت إسبانيا والبرتغال بين عامى ١٤٠٣ و ١٥١٥ فى مراكش والجزائر وطرابلس فى شمال غرب إفريقيا وفى سقطرة ومسقط والبحرين فى جنوب شرق الجزيرة العربية ، ثم تلتهما تركيا فى عام ١٥١٦ فاحتلت حلب فى شرق البحر الأبيض ومدينة الجزائر فى شمال إفريقيا ثم توالت هجماتها فاحتلت الحجاز واليمن ومصر والأحساء والعسير وبرقة ، وفى ١٥٣٥ حصل فرانسوا الأول ملك فرنسا من سليمان سلطان تركيا على أول معاهدة وصفت بأنها معاهدة « صداقة وتجارة » ولكنها فى الواقع منحت الرعايا الفرنسيين امتيازات انتقصت من سيادة الدولة العثمانية وميزت الأجانب على العرب رعايا تلك الدولة وهذه المعاهدة اتخذت أساساً لباقى المعاهدات التى عقدت بين تركيا والدول الغربية والتى ميزت رعايا هذه الدول الأجانب على العرب أهل البلاد الأصليين ، وفى نفس العام أى عام ١٥٣٥ احتل ملك إسبانيا وإمبراطور ألمانيا تونس ، وتابعت تركيا احتلال بقية الشرق العربى فاستولت على طرابلس والعراق وتونس .

وفى عام ١٦٢٢ اشتركت بريطانيا فى التسلل الاستعمارى فأخرجت البرتغال من البحرين بالتعاون مع إيران ، وفى عام ١٦٨١ ضربت فرنسا شواطىء تونس بالقنابل كما ضربت شواطىء الجزائر فى عام ١٦٨٤ وعادت

---

(١) جورج كيرك ، نفس المرجع ، ص ٦٣ .

إلى ضرب تونس فى عام١٧٧٠، وفى٧ مايو ١٨٣٠ عقدت بين الولايات المتحدة الأميريكية وتركيامعاهدة وصفت — كالعادة — بأنها معاهدة تجارة وملاحة مع أنها فى الواقع منحت الرعايا الأميركيين امتيازات على حساب أهل الشرق العربى الذى كانت لتركيا السيادة عليه .

ولم يكد ينتهى القرن الثامن عشر حتى صفيت محاولات التسلل الاستعمارى الأوربى فى الشرق العربى وبرز فى خلال القرن التاسع عشر السباق بين فرنسا وبريطانيا على استعمار هذا الشرق .

فى صيف عام ١٧٨٩ غزت فرنسا مصر بقيادة نابليون بونابرت وقد فطن إلى ما سوف تصادفه قواته فى هذه المنطقة من الشرق العربى فأصدر بمجرد وصوله إلى الإسكندرية منشوراً كان قد طبعه على ظهر الباخرة« أوريان» Orient إحدى بواخر الغزو ، باللغة العربية ذكر فيه

« أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى روما وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الفرسان الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين »(١)

ورغم المقاومة العنيدة التى لقيها الجيش الفرنسى من المصريين فإن نابليون ظل يتملق المصريين فدعا إلى انشاء الديوان العام ورأى تأليفه

---

(١) Charles Roux : Bonaparte Governor of Egypt, p. 26.
والنص العربى منشور بالجبرتى ، وقد استبعدنا منه بعض الألفاظ التى ليست عربية .

من ثلاثة من العلماء وثلاثة من التجار وثلاثة من الأهالى عن كل مديرية ومحافظة ، وقد اجتمع ذلك الديوان يوم ٥ من أكتوبر عام ١٧٩٨ وافتتحه نابليون بخطاب قال فيه :

« إن مصر بلاد لا نظير لها وهى أخصب البلاد ، وإن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد مصر الأول » .

وقد وجهت الحكومة التركية — بعد نزول القوات الفرنسية فى مصر — إلى ممثلى الدول الأوربية فى القسطنطينية إنذاراً جاء فيه :

« إن مصر باب المدينتين المقدستين مكة والمدينة ولذلك فإن الاعتداء عليها يثير أكبر اهتمام لدى المسلمين ، وطبقاً للتصريحات التى أعلنها الباب العالى من قبل فى هذا الشأن سواء للقائم بأعمال السفارة الفرنسية أو لحكومة " الديريكتوار " بواسطة السفير التركى فى باريس فإن الهجوم الغاشم وغير المتوقع والأعمال العدوانية التى أقدمت عليها فرنسا يجب أن تقابل — طبقاً للقوانين العادلة — بالقوة . . . . ولكى يتم الانتصار على الأعداء وسحقهم قد أصبح واجباً دينياً على كل مسلم أن يخرج للحرب ضد فرنسا »[1] .

(١) Joseph Kabarda, Quelques Firmans concernant les relations franco-turques lors de l'expédition de l'Egypte, Paris, Cahiers de la Société Asiatique.

ص ١٤ .

وأصدر سلطان تركيا « فرماناً » أعلن فيه الحرب المقدسة ضد فرنسا جاء فيه :

« إن هذا القرار الذى صدر بالإجماع من أعضاء مجلس الدولة وبموافقة شيخ الإسلام يبرره واجب المسلمين المقدس فى استرداد القاهرة من أيدى الخونة وتحرير إخوتنا فى الدين »(١) .

ومن ذلك يتضح بجلاء أن تركيا — وإن كانت دولة غير عربية — إلا أنها تبينت — أن وحدة اللغة ووحدة الثقافة ووحدة المعاناة من الخطر المشترك كفيلة بإثارة الشرق العربى كله ضد ذلك الغزو الفرنسى واستغلت وجود الخلافة فى عاصمتها لكى تدعو العرب — وغالبيتهم العظمى من المسلمين — إلى « الحرب المقدسة » ضد الفرنسيين .

ولكن الظروف التى كان الشرق العربى يعيش فيها لم تسمح — إذ ذاك — بأن يشترك مع المصريين غيرهم من أهل الشرق العربى فى مكافحة الغزاة ، واقتصر هذا الكفاح على المصريين وحدهم الذين ذكر المؤرخون الفرنسيون أنهم من كل طبقة وكل لون قد دافعوا عن أرض مصر ضد الغازى ولم يكونوا يسلمون فى أى شبر من تلك الأرض إلا أمام القوة المتفوقة(٢) .

وصحت نبوّة الكاتب الفرنسى فولنى Volney الذى كتب فى عام ١٧٨٨ — أى قبل الحملة الفرنسية بعشرة أعوام — يقول : « لكى

(١) المرجع السابق — ص ٣٩ .

(٢) « رو » ، نفس المرجع ، ص ٢٤ .

يستقر قرارنا فى مصر يجب أن نشن ثلاث حروب : الأولى ضد إنجلترا والثانية ضد الباب العالى والثالثة — وهى أشد الحروب الثلاثة وأصعبها — ضد المصريين من سكان مصر » واقتنع بونابرت بصحة هذا الرأى بعد أن تم له غزو مصر فكتب يقول : « إن نبوءة فولنى كانت حقة ، فقد تطور موقفنا فى مصر إلى مشكلة عويصة ، فإما أن نجلو وإما أن نسالم الآراء الدينية السائدة فى مصر لئلا نوضع بين أعداء الإسلام ، والتجربة قد أثبتت أنه لا يكفى لكى نوضع بين أصدقاء الإسلام أن نعلن من جانبنا صداقتنا له »[١] .

ولم تطق بريطانيا أن تترك فرنسا تثبت أقدامها فى الشرق العربى فأرسلت إلى مصر عام ١٨٠١ حملتين نزلت إحداهما فى شهر مارس فى أبى قير — بالاتفاق مع الحكومة التركية — ونزلت شهر الأخرى فى يونيو فى القصير .

وفى نفس العام جردت الولايات المتحدة الأمريكية حملة على طرابلس فى شمال إفريقيا .

وشهد القرن التاسع عشر اتساع التسلل الاستعمارى عن طريق معاهدات « الحماية » ، وكان اتجاه بريطانيا فى بدء ذلك القرن إلى الجنوب العربى : البحرين وعدن ومسقط والعراق .

ولما تحالفت تركيا مع فرنسا — كما سبق أن تحالفت مع بريطانيا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠ — ٧٣ .

فى عام ١٨٠١ - أسرعت بريطانيا بإنزال قواتها فى الإسكندرية فى عام ١٨٠٦ .

وتوالت فى عام ١٨٢٠ معاهدات الحماية مع حكام الخليج العربى : الشارقة ورأس الخيمة ودبى وأبو ظبى وعجمان وأم القيوين ، كما توالى تنازل تركيا عن حقوق أهل الشرق العربى ، من ذلك الفرمان الذى أصدرته فى عام ١٨٣٤ بالترخيص للبواخر البريطانية بالملاحة والذى استندت إليه بريطانيا فى إنشاء « شركة الملاحة التجارية فى الدجلة والفرات » وبينما كانت بريطانيا موغلة فى التسلل فى الجزيرة العربية اتجهت فرنسا إلى شمال إفريقيا فاحتلت الجزائر فى عام ١٨٣٠ ومراكش فى عام ١٨٤٤ وتقاسمت إسبانيا معها هذه الأرض العربية فى عام ١٨٥٠ عندما اعتدت على مراكش .

وقد قطع الاحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢ بأن الحكام الدخلاء الذين لم يكونوا مشتركين مع أهل الشرق العربى فى وحدة التاريخ أو وحدة اللغة أو الثقافة — وإن اشتركوا مع غالبيتهم فى العقيدة الدينية — لم يتورعوا عن خيانة هذا الشرق العربى وأهله حرصاً على مصالحهم الخاصة .

ولعل التاريخ لم يشهد عاهلا بلغ به فجور الخيانة ما بلغ بتوفيق الذى لم يكد يطمئن إلى دخول الإنجليز حتى أعلن فى الصحيفة الرسمية بياناً لشعبه قرر فيه :

« إن ما حصل من ضرب المدافع من الدونمة الإنجليزية على طوابى

إسكندرية وتخريبها إنما كان السبب فيه استمرار الأعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير إخفاؤها وإنكارها ، والآن وقد حصلت المكالمة مع الأميرال فأفاد أنه ليس للدولة الإنجليزية مع الحكومة الخديوية أدنى خصومة ولا عدوان وأن ما حصل إنما هو مقابلة ما كان من التهديد والتحقير للدونتم ، وأنه إذا كان بيد الحكومة الخديوية جيش منظم وممثل ومؤتمن فهو مستعد لتسليم مدينة الإسكندرية إليها . . . تحقق من هذا أن الدولة الإنجليزية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية » واستمر بيان توفيق موجهاً القول إلى عرابى . . . . « لذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية التى تجرونها بوصول أمرنا هذا وتحضروا حالا إلى سراى رأس التين لأجل إعطاء التنبيهات المقتضية الشفاهية على حسب أمرنا هذا وما استقر عليه رأى مجلس النظار »[١] .

واتضحت بجلاء خيانة الخديوى من البرقية التى أرسلها كارترت البريطانى فى ١٦ من يوليو سنة ١٨٨٢ إلى لندن والتى جاء فيها : « أتشرف بأن أخبركم أن الخديوى عزل عرابى باشا من منصب وزير الجهادية وأصدر أمره بمنع جميع المصريين من مساعدته وسيذاع هذا الأمر بكافة الوسائل التى فى متناول سموه »[٢] .

وقد أرسلت هذه البرقية قبل نشر بيان الخديوى فى الوقائع المصرية

---

(١) الوقائع المصرية ، ١٨ من يوليو سنة ١٨٨٢ .

(٢) محمود الخفيف ، « أحمد عرابى : الزعيم المفترى عليه » ص ٣٤٢ .

وقبل استدعاء عرابى وقبل قرار عزله الذى لم يعلن إلا فى ٢٣ من يوليو سنة ١٨٨٢ .

وبعد إعلان عزل عرابى ألف « المجلس العرفى » بالقاهرة من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط وكبار الموظفين لإدارة القتال ضد المعتدى الأجنبى وانعقدت الجمعية العامة أو مجلس العموم فى ١٨ من يوليو سنة ١٨٨٢ وشهدها نحو أربعمائة عضو من خلاصة المصريين الذين قرروا الاستمرار فى مقاومة الاعتداء البريطانى فى الوقت الذى كان الخديوى توفيق يستدعى فيه السير أوكلاند كلفن البريطانى ليطلب إليه أن يستحث حكومته على اتخاذ خطوة جديدة بلا إبطاء وأنه — أى توفيق — يرى أن هذا العمل ضرورى جداً وقد بلغت الضعة بتوفيق عقب الاحتلال البريطانى إلى حد أنه استمر على توجيه البيانات إلى جميع أهالى وسكان القطر المصرى زعم فيها :

« بما أن العساكر الإنجليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين . . . . على كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالإكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم فى تقديم ما ربما يحتاجون إليه من المؤونة . . فمن فعل ذلك فقد وفى بما يجب عليه من حقوق الوطنية واستوجب رضاء الله ورضانا عنه فضلا عما يراه منهم من المكرمة ، ومن أبى وخالف وقابلهم بالمكابرة الوحشية التى لا تجديه نفعاً فقد عرض نفسه للتهلكة التى نهى الله عنها وتحققنا أنه من العصبة الباغية فأمره كأمرهم » .

ووجه توفيق أمراً آخر إلى ضباط الجيش وجنوده طالبهم فيه بطاعة القائد البريطاني ولسلى وتنفيذ أوامره « فمن يخضع له فكأنه خضع لنا شخصياً ومن خالفه كان عاصياً لنا ويعامل معاملة العصاة »[١] .

وتوالى تسلل بريطانيا الاستعماري في جنوب الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر كما توالى تطلع فرنسا إلى بعض المناطق الإفريقية من هذا الشرق حتى وقع حادث فاشودة في عام ١٨٩٨ .

وفي ٨ من أبريل عام ١٩٠٤ وقع المركيز لانسدون وزير الخارجية البريطانية ومسيو بول كامبول سفير فرنسا في لندن بالنيابة عن حكومتيهما سلسلة اتفاقات عرفت باسم « الاتفاق الودى » اتفقت فيهما الحكومتان بالنسبة للشرق العربي على ألا تتعرض إحداهما للأخرى في منطقة نفوذها ، وقد وصفت هذه الاتفاقات بأنها تحسر القناع عن الأطماع الاستعمارية ، وتظهر بجلاء خشية الدولتين الأوربيتين الاستعماريتين — إنجلترا وفرنسا — من قيام دولة متماسكة الأجزاء تشمل مصر والأقطار العربية وقد تجلت هذه الخشية ، مع مزيد الأسف ، عند ما قسمت بعض الأقطار العربية التي كانت على مدى التاريخ أجزاء من الدولة العربية تقسيماً مرتجلا لم تراع فيه أية اعتبارات تاريخية أو جغرافية أو جنسية[٢] .

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٢) محمود كامل « العمل لمصر بعث دولة وإحياء مجد » ١٩٤٥ ، من الفصل الذى جعل عنوانه « مصر والأقطار العربية » ص ١٠٧ — ١٠٨ .

جـ — الصهيونية

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر — الذى شهد تصارع الدول الأوربية على اقتسام الشرق العربى واستعماره — ظهر عدو مشترك لأهل هذا الشرق من العرب : هو الصهيونية ، وكانت مصر — وفلسطين إذ ذاك مندمجة فيها — أول ما اتجهت إليها نوايا الصهيونية العدوانية إذ قدم إليها موسى حاييم مونتفيور فى عام ١٨٣٨ بعد أن زار فلسطين ولم يجد بها إلا ثمانية آلاف يهودى متفرقين فى القدس وسباط وطبرية والخليل ، وكتب يسجل فى مذكراته :

« من كل المعلومات التى استطعت جمعها اتضح لى أن الأرض المجاورة تبدو أنها صالحة على الخصوص للاستغلال الزراعى . فهنا أحراش من أشجار الزيتون يغلب على ظنى أنها تعود إلى خمسمائة عام وحقول كرم ومراع شاسعة وعدد كبير من الآبار . كما توجد أشجار تين وحقول قمح وشعير غنية فهى فى الحقيقة أرض يمكن أن تنتج أى شىء بكثرة فى مقابل قليل من المهارة والعمل . إننى واثق من أنه لو نجح المشروع الذى أفكر فيه فإنه كفيل بتحقيق السعادة والرخاء للأرض المقدسة . وسأبدأ بأن أطلب من محمد على منحى أرضاً لمدة خمسين عاماً ومائة أو مائتى قرية وسأعطيه ربحاً يتراوح بين عشرة وعشرين فى المائة على أن يكون دفع المبلغ بأجمعه سنويًّا فى الإسكندرية بشرط أن تعفى الأرض والقرى التى ستمنح طول المدة من أية ضريبة يفرضها الباشا — أى محمد على —

أو حاكم المناطق التى ستمنح فيها الأرض ، وبشرط أن أحصل على حرية التصرف فى الحصول فى أية جهة من جهات العالم، فإذا حصلت على المنحة فإننى سأستعين بالله بعد عودتى من إنجلترا وأنشىء شركة تتولى زراعة الأرض وتشجع أبناء ديننا فى أوربا على العودة إلى فلسطين . إن كثيرين من اليهود يهاجرون الآن إلى ويلز الجنوبية الجديدة وكندا ولكنهم يستطيعون فى الأرض المقدسة أن يجدوا فرص النجاح المؤكد . هنا سيجدون الآبار التى تم حفرها ، وأشجار الزيتون والكرم التى تم زرعها، والأرض الخصبة التى لا يعوزها إلا القليل من السماد . وأننى لآمل أن أوفق تدريجياً إلى إعادة آلاف من أبناء ديننا إلى أرض إسرائيل. كما أننى واثق من أنهم سيكونون سعداء عند ما يتبينون أن ديننا المقدس قد رعى بطريقة يستحيل تحقيقها فى أوربا » .

ولم تقبل مصر منح هذه الأرض إلى سير موسى مونتفيور ، ولكن الأخير استطاع فى عام ١٨٤٠ — أن يحصل من لورد بالمرستون على وعد بأن يعد القناصل الإنجليز فى الشرق أنفسهم حماة لليهود فى الأقطار التركية . ثم وفق سير مونتفيور فى عام ١٨٤٥ إلى الحصول على أرض فى فلسطين عهد باستغلالها إلى خمس وأربعين أسرة يهودية من سباط .

وفى عام ١٨٦٢ نشر موسى هيمى وهو يهودى ألمانى اعتنق المبادئ الاشتراكية وتعشق المدنية الفرنسية كتاباً أسماه « روما والقدس » ذكر فيه أن العصر الذى يتحقق فيه أمل اليهود قد بدأ بالثورة الفرنسية وقرر « أن ما علينا عمله اليوم لإعادة تأسيس وطن اليهود القومى أن نحتفظ دائماً بالأمل فى بعثنا السياسى وأن نوقظ هذا الأمل كلما نام . فإذا مكنتنا

الحوادث التى تتأهب للوقوع فى الشرق من البدء عملياً فى إعادة إنشاء دولة يهودية فإن الخطوة التالية ستكون إنشاء مستعمرات فى أرض الأجداد ، وهو عمل لا شك فى أن فرنسا ستمد له يد العون » .

وفى نفس ذلك الوقت تقريباً أسست جمعية أوسع نطاقاً من اليهود الروس أطلقوا على أنفسهم اسم Hovevei Zion أى « محبو صهيون » وقد نتج عن هذا النشاط المتشعب أن أسست عدة مستعمرات صهيونية كمستعمرة « ريشون لوزيون » على مقربة من يافا و « زيشرون يعقوب » فى سامارية . . . . وكان من زعماء هذه الحركة الصهيونية طبيب يهودى فى مدينة أوديسا يدعى ليون بنسكر Leon Pinsker فلما صدرت « قوانين مايو » أخذ بنسكر يبشر بنظرية تدعو إلى أن يتولى اليهود أنفسهم خطوة نحو تحرير أنفسهم Auto-Emancipation وقرر « أن اليهود يكونون داخل الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها عنصراً له كيانه الخاص ومقوماته الخاصة Heterogeneous بحيث لا يمكن لشعب آخر أن ينسجم معه » وأضاف أن اليهود شعب لا استقلال له ولذلك ينظر إليهم العالم كأنهم « أشباح تجول بين الأحياء » .

ولتحقيق هذا الغرض دعا بنسكر إلى عقد مؤتمر قومى ، وقد أثارت آراء بنسكر اهتماماً كبيراً بين يهود العالم ، ولكنها لم تثمر ثمرة عملية ، واضطر آخر الأمر إلى أن يشترك مع جمعية « محبى صهيون » فى مشروعاتها الخاصة باستعمار فلسطين .

وفى عام ١٨٩٦ ، أى بعد انقضاء أربعة عشر عاماً على إصدار

كتاب ليون بنسكر عن « تحرير اليهود بواسطة اليهود » أصدر صحفى يهودى نمساوى هو تيودور هيرتزيل Theodor Hirzel كتاب « الدولة اليهودية » ، وكانت نتيجة صدوره أن تناسقت الجهود المختلفة التى كانت تبذل فى سبيل إنشاء وطن قومى لليهود ، ولم تكد تنقضى بضعة أشهر حتى بدأت حركة جديدة عرفت باسم « الصهيونية السياسية » ، وقد بدأ مؤلف كتاب « الدولة اليهودية » يكون عناصر مشروعة عن إنشاء دولة يهودية فى عام ١٨٩٦.

وقد استطاع هيرتزيل بواسطة مغامر يدعى شيفالييه ده نيولينسكى كانت له صلات بالقسطنطينية أن يقابل السلطان عبد الحميد وأن يقدم إليه التماساً بأن يتنازل لليهود عن فلسطين ، لكى يؤسسوا فيها جمهورية أرستقراطية على نسق جمهورية البندقية ، وقد بحث سلطان تركيا جميع احتمالات هذا الالتماس وما وعد به من مساعدات مالية كان اليهود على أتم استعداد لتقديمها ، ولكنه لم يتردد قط فى رفض فكرة السماح بإقامة دولة يهودية داخل حدود الإمبراطورية التركية .

وفى عام ١٩٠٢ وعندما يئس هيرتزيل من موافقة الحكومة التركية على استعمار الصهيونيين لفلسطين ولى وجهه شطر إنجلترا التى وإن كانت إذ ذاك لا علاقة لها بحكم فلسطين إلا أنها كانت قد احتلت مصر قبل ذلك بعشرين عاماً وقد أشار هيرتزيل فى اقتراحاته على الحكومة البريطانية إلى أن معاونيه وإن كانوا يعارضون فى أن يكون وطن اليهود القومى أرضاً غير فلسطين إلا أنهم قد يوافقون على أن تكون هذه الأرض مجاورة

لفلسطين على اعتبار أن يكون استعمار هذه الأرض المجاورة تمهيد لاستعمار فلسطين نفسها ولذلك اقترح على مستر جوزيف تشامبرليز الذى كان إذ ذاك وزير المستعمرات . أن يسمح للصهيونيين باستعمار قبرص فرفض تشامبرلين ذلك الاقتراح توّاً على أساس أن مجرد عرضه سيثير ثائرة أهالى قبرص اليونانيين والأتراك فاقترح هيرتزيل استعمار الأراضى المجاورة للعريش فى الحدود المصرية المتاخمة لحدود فلسطين ، ولما كان هذا الأمر من اختصاص وزارة الخارجية أحيل هيرتزيل إلى لورد لانسدون وقد أثمرت المفاوضات التى دارت فى وزارة الخارجية البريطانية تأليف لجنة صهيونية أرسلت برضاء سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر لدراسة احتمالات نجاح فكرة الاستعمار فى أراضى العريش ولكن رفضت السماح بذلك الاستعمار [1] .

وانشقت أقلية صهيونية عقب ذلك تزعمها إسرائيل زانجويل ، أطلقت على نفسها اسم « الهيئة اليهودية الاستعمارية » جعلت هدفها البحث عن أرض غير فلسطين لكى تنشىء فيها مركزاً له استقلال ذاتى يضم اليهود الذين لا يستطيعون أن يظلوا فى الدول التى يعيشون فيها أو الذين لا يجب أن يعيشوا فيها وقد فكرت هذه الهيئة فى استعمار برقة ولكنها لم تستطع أن تحقق عمليًّا شيئاً من برنامجها إلى أن أعلنت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ .

---

(١) « باربر » نفس المرجع ، ص ٥٠ .

ومن مجرد استعراض هذا التاريخ يتضح أن الشرق العربي : فلسطين وشبه جزيرة سيناء و برقة كان هدف الصهيونية التي ركزت برامجها العدوانية عليه بعد أن استبعدت كل الحلول الأخرى التي عرضت إسكان اليهود في أراض بالأرجنتين وقبرص وكينيا وغيرها .

وفي منتصف مارس عام ١٩١٦ وقعت بريطانيا وفرنسا اتفاقاً حرصت الحكومتان على أن يبقى سرياً وعرف فيما بعد باسم اتفاق « سايكس – بيكو » نسبة إلى مندوبي الحكومتين اللذين وقعاه وهما مسيو جورج بيكو أحد قناصل فرنسا السابقين في بيروت وسير مارك سايكس أحد المتوفرين على دراسة الشئون الشرقية ، وقد نص هذا الاتفاق على تقسيم الشرق الأوسط العربي إلى خمس مناطق . . . . . والمنطقة الخامسة سميت « المنطقة السمراء » وتشمل فلسطين في حدودها الحالية باستثناء بير سبع والنقب وجزء من الخليل . ونص اتفاق « سايكس – بيكو » على أن المتعاقدين يقران بالنسبة لمنطقتي ا ، ب قيام دولة عربية مستقلة أو اتحاد بين دول عربية تحت سيادة حاكم عربي . أما بالنسبة للمنطقة السمراء فقد أرجيء البت في أمرها نظراً لطبيعتها الدينية الخاصة حتى تتم إدارتها دولياً طبقاً لنظام يتفق عليه مع روسيا وشريف مكة ، وقد اعترضت فرنسا في بادئ الأمر على فكرة الإدارة الدولية المقترحة لفلسطين باعتبار أنها ما دامت جزءاً من سورية فهي جزء من المنطقة التي نص الاتفاق على الاحتفاظ بها لها ، ولكن عندما سافر المندوبان إلى بتروجراد للتشاور مع الحكومة الروسية ادعى سازونوف وزير الخارجية الروسية أن لدولته حقوقاً في

فلسطين نظراً لكثرة عدد المؤسسات الروسية فى القدس والخليل ونابلس والناصرة وأبدى أنه لذلك يطالب بوضع فلسطين تحت الحماية الروسية، فلما تبينت فرنسا موقف روسيا وخشيت مغبة عواقبه انضمت إلى جانب إنجلترا وأقرت وضع المنطقة السمراء تحت الإدارة الدولية .

وفى ٢ من نوفبر عام ١٩١٧ — وبعد أن مهدت الحكومة البريطانية للغدر بفلسطين — أرسل مستر آرثر جيمس بلفور خطابه الذى عرف فيما بعد باسم وعد بلفور إلى لورد روتشيلد وذكر فيه :

« إن حكومة جلالة الملك تنظر بارتياح إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى وستبذل كل ما تستطيع لتسهيل تحقيق هذا الغرض على أن يكون مفهوماً جلياً أنه لن يعمل شىء يضر الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية المقيمة الآن بفلسطين أو بالحقوق السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى دولة أخرى » .

وفى ديسمبر عام ١٩١٧ — وفى نفس الوقت الذى كانت المراسلات مستمرة فيه بين سير ما كماهون والشريف حسين وهى المراسلات التى رأينا أن الحكومة البريطانية كانت تكرر فيها تعهداتها بإعلان حرية الشعوب العربية وتأييد هذه الحرية — نشر اتفاق « سايكس — بيكو » الذى ظل سراً منطوياً على الغدر بفلسطين وغيرها من الأقطار العربية ، وكان نشره وإزاحة الستار عنه مع الاتفاق الثلاثى بين بريطانيا وفرنسا وروسيا عقب تولى الحكومة السوفيتية الحكم فى ديسمبر عام ١٩١٧ ، فأسرع جمال باشا قائد القوات التركية التى كان يحاربها الجنرال أللنبي بإرسال

نسخة من الوثائق التى أذيع سرها إلى الأمير فيصل بالعقبة وطلب من فيصل أن ينضم إلى جانبه فى محاربة عدو مشترك بعد أن انفضحت نوايا هذا العدو واتضح الدليل القاطع على أنه باع العرب وخان ثقتهم . وعرض عليه توقيع صلح عربى تركى ينص فيه على استقلال جميع أجزاء الإمبراطورية العثمانية التى للناطقين باللغة العربية أغلبية فيها[١].

وفى أول مايو عام ١٩١٩ أذيع رسمياً بمدينة نابلس ، وعد بلفور الذى كان قد صدر فى ٢ من نوفمبر عام ١٩١٧ وكانت إذاعته على لسان الجنرال لويس بولز ، أى بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً على صدوره، إذ أن لورد أللنبى كان قد وعد بإخفاء أمر ذلك الوعد حتى يحين الوقت المناسب لإذاعته .

وفى عام ١٩١٩ أرسل الرئيس « وودرو ويلسون » لجنة « كنج — كرين » إلى فلسطين وهذه اللجنة مؤلفة من الدكتور هنرى تشرشل كنج رئيس جامعة « أوبرلين » وشارلز كرين أحد رجال الصناعة فى شيكاغو وعضو اللجنة الأمريكية التى أوفدت إلى روسيا عام ١٩١٧ ،وقد كلفت اللجنة بزيارة فلسطين وغيرها من الأراضى العربية فى الشرق الأدنى التى كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية لدراسة أحوالها . وعقب عودتها قررت اللجنة أن « وطناً قومياً للشعب اليهودى لا يعنى إقامة دولة يهودية وأن هذه الدولة لا يمكن إقامتها بدون ارتكاب أخطر أنواع الاغتصاب للحقوق

(١) أبكاريوس ، ص ٣٩ — ٤١

Palestine through the Fog of Propaganda

المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية التى تعيش الآن فى فلسطين(١)».

وقد ظل هذا التقرير هو التقرير الأمريكى الوحيد عن فلسطين حتى
عام ١٩٤٦ « ليليتال » ، ص ٢٧ — ٢٨ . وقد عارضت لجنة « كنج —
كرين » فى فرض الانتداب الفرنسى على هذه المنطقة العربية وطالبت
بمعاملة سورية كوحدة — وكانت سورية إذ ذاك تشمل سورية ولبنان
وفلسطين والأردن — ولم ينشر هذا التقرير حتى عام ١٩٢٢
The Royal Institute of International Affairs : The
Antonius, Arab وقد استند على Middle East, 1955, p. 26-27.
Awakening ونشر عام ١٩٥٧ القسم الخاص بفلسطين والصهيونية
من تقرير هذه اللجنة المؤرخ فى ٢٨ من أغسطس سنة ١٩١٩ نقلا عن
الجزء الثانى من كتاب «الثورة العربية الكبرى» لأمين سعيد وقد جاء فيه :

« لقد اتضح لهذه اللجنة أن الشعور العدائى نحو الصهيونية ليس
قاصراً على فلسطين فحسب بل يشمل سكان سورية بوجه عام فإن٧٢ فى
المائة من مجموع العرائض التى تناولتها اللجنة فى سورية مضادة للصهيونية
ولم ينل مطلب نسبة أكثر من هذه النسبة سوى الوحدة السورية والاستقلال.

---

(١) National home for the Jewish people is not equivalent to making Palestine a Jewish state. State could not be erected without the gravest trespass upon the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine.

وبعد أن ذكر التقرير أن اللجنة قضت أسبوعاً فى القدس واستفتت رؤساء الطوائف المختلفة وزارت خلاله بيت لحم والخليل وبئر السبع ثم طافت شمالى فلسطين ، واستقبلت الوفود فى رام الله ونابلس وجنين والناصرة وحيفا وعكا واجتمعت بمستعمرة ريشون لوزيون بزعماء عدة مستعمرات يهودية وبأعضاء اللجنة الصهيونية المركزية تناول التقرير مطالب الشعب الفلسطينى على الوجه التالى .

« اجتمعت كلمة المسلمين وهم حسب الإحصاء الإنجليزى الأخير نحو أربعة أخماس السكان على المطالبة باستقلال سورية المتحدة ولم تشذ منهم سوى طائفة معروفة من الموظفين كانت تسير على تيار النفوذ السياسى . وقررت الأحزاب التى اجتمعت فى يافا أن سورية أهل لحكومة مستقلة بلا دولة وصية .

ولم يعر مؤتمر الصلح اهتماماً لقرارات المؤتمر السورى الذى انعقد فى دمشق فى يونيو عام ١٩١٩ ، لتوضيح رغبات الشعب السورى أمام لجنة « كنج — كرين » الأمريكية وهى الرغبات التى عارضت كل فكرة ترمى إلى تقسيم سورية أو إنشاء دولة يهودية بفلسطين . فإنه فى ٢٨ من يونيو ١٩١٩ تم التوقيع بفرساى على ميثاق عصبة الأمم وبعد يومين — أى فى ٣٠ من يونيو — سلمت إدارة فلسطين المدينة إلى هربرت صمويل كما سبق أن أشرنا .

وقد رد العرب على ذلك بعقد المؤتمر الفلسطينى الأول عام ١٩١٩ بالقدس وهو المؤتمر الذى رفض وعد بلفور والهجرة الهودية والانتداب

البريطانى وطالب بوحدة سورية وسمى فلسطين « سورية الجنوبية » و بإعلان استقلال سورية — ومنها فلسطين — من شرفة بلدية دمشق فى ٨ من مارس ١٩٢٠ وإعلان قرار المؤتمر السورى الذى يعد فلسطين جزءاً من سورية و « رفض مزاعم الصهيونيين بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود أو محل هجرة لهم » .

وفى ديسمبر ١٩٢٠ ، عقد المؤتمر الفلسطينى الثالث بحيفا — لأن المؤتمر الثانى الذى كانت الجمعيات الإسلامية المسيحية قد دعت إليه منعت السلطات البريطانية عقده — وأكد قرارات المؤتمر الأول وألف « لجنة تنفيذية » لتوجيه الحركة الوطنية .

وفى يونيو ١٩٢١ عقد المؤتمر الفلسطينى الرابع بالقدس وعاد المؤتمر إلى رفض تصريح بلفور وتأكيد الوحدة السورية . وندب المؤتمر وفداً إلى بريطانيا لشرح القضية الفلسطينية وأثمر هذا الجهد ؛ إذ أصدر مجلس اللوردات البريطانى فى ٢٠ من يونيو قراراً برفض الموافقة على وثيقة الانتداب البريطانية على فلسطين لمناقضته لوعود بريطانيا السابقة للعرب عام ١٩١٥ (١) .

وفى ٣٠ من مارس عام ١٩٣٠ وصل إلى لندن وفد اللجنة التنفيذية لمؤتمر فلسطين العربى واتصل برئيس الوزارة البريطانية مستر مكدونالد . وقد رفضت حكومة العمال طلبات الوفد العربى الخاصة « بوقف الهجرة وسن تشريع لمنع انتقال الأراضى التى يملكها العرب إلى اليهود وتأليف

---

(١) أكرم زعيتر ، « القضية الفلسطينية » ، ١٩٥٥ ، ص ٦٨ — ٦٩

حكومة وطنية مسئولة أمام مجلس نيابى يشترك فيه أهل البلاد بنسبتهم العددية .

وفى ٣ من أغسطس عام ١٩٣١ عقد بنابلس مؤتمر عربى أعلن استنكاره لتسليح اليهود . كما دعت اللجنة التنفيذية العربية أهل البلاد إلى الإضراب العام فى ٢٣ من أغسطس — وفى نفس العام انعقد بالقدس المؤتمر الإسلامى العام الذى اشترك فيه مندوبو البلاد الإسلامية والعربية وأجمعوا على تأييد عروبة فلسطين واستنكار السياسة الإنجليزية الصهيونية .

وفى ٢٥ من أبريل عام ١٩٣٦ أنشئت « اللجنة العربية العليا » لقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية . فأعلنت الثورة وأقبل المتطوعون العرب من سورية وشرقى الأردن لنجدة إخوانهم الفلسطينيين ومنهم جماعة من العراق بقيادة فوزى القاوقجى . ولكن ملوك العرب — الملك عبد العزيز آل سعود ملك العربية السعودية والملك غازى ملك العراق والإمام يحيى ملك اليمن والأمير عبد الله حاكم شرقى الأردن توسطوا — فى النزاع (١) .

وفى أول أكتوبر ١٩٣٦ أعلنت « اللجنة العربية العليا » هذا النداء ولبته ولكن بعد ذلك — وقبل سفر اللجنة الملكية البريطانية المعروفة باسم لجنة

---

(١) نص النداء الذى وجهه الرؤساء العرب : « إلى أبنائنا عرب فلسطين : لقد تألمنا كثيراً للحالة السائدة فى فلسطين ، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للإخلاد للسكينة حقناً للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها لتحقيق العدل وثقوا بأننا سنواصل السعى فى سبيل مساعدتكم » .

« بيل » — صرح وزير المستعمرات البريطانى فى ٥ من نوفمبر من نفس العام بأن وقف الهجرة اليهودية أثناء تحقيق اللجنة الملكية لا تبرره أسباب اقتصادية ولا غيرها فبادرت اللجنة العربية العليا إلى إعلان مقاطعة هذه اللجنة . وقد وصف بعض المؤرخين العرب ثورة عام ١٩٣٦ بأنها تمتاز بكونها « موجهة أولا ضد الانتداب البريطانى وبكونها عنيفة وشديدة وباستمرارها وشمولها طبقات الأمة . وباشتراك العرب غير الفلسطينيين فيها اشتراكاً فعلياً »(١) .

وفى ٨ من سبتمبر ١٩٣٧ عقد فى بلودان مؤتمر عربى اشتركت فيه وفود مصر والعراق وسورية ولبنان والأردن وفلسطين وأناب عرب المغرب من يمثلهم لأن السلطات الفرنسية لم تسمح لهم بالسفر وقد قرر ذلك المؤتمر :

١ — إن فلسطين جزء لا ينفصل عن الوطن العربى .

٢ — رفض ومقاومة تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية فيها .

٣ — الإصرار على طلب إلغاء الانتداب ووعد بلفور وعقد معاهدة مع بريطانيا تضمن للشعب العربى استقلاله وسيادته ، وأن تكون حكومته دستورية ؛ فيها للأقليات ما للأكثرية من الحقوق وفقاً للمبادئ الدستورية العامة .

٤ — تأييد طلب وقف الهجرة عاجلا وإصدار تشريع يمنع انتقال الأراضى من العرب إلى اليهود .

وفى ٢٦ من سبتمبر ١٩٣٧ اندلعت نار ثورة فلسطينية أخرى ضد

---

(١) أكرم زعيتر ، نفس المرجع ، ص ١٠٥ .

سلطات الانتداب والصهيونيين وعم القطر العربى إضراب عام .

وفى ٧ من فبراير ١٩٣٩ افتتح مؤتمر لندن بين البريطانيين والعرب صباحاً و بين البريطانيين والصهيونيين مساء . وقد اشتركت جميع الحكومات العربية فى هذا المؤتمر الذى ظل منعقداً بضعة أسابيع والذى وصفه فريق من المؤرخين الإنجليز بأنه « أول اعتراف دولى رسمى بمجموعة دول عربية » . (١)

وفى ١٧ من مارس ١٩٣٩ أعلنت الحكومة البريطانية كتابها الأبيض الذى عدلت فيه عن فكرة التقسيم التى كانت قد أوصت بها لجنة « بيل » واعترفت بحق فلسطين فى الاستقلال وخولت مندوبها السامى سلطة منع انتقال الأراضى إلى اليهود وهذا كله نصر للثورة وثمرة للجهاد والتضحيات (٢) .

إلا أن الكتاب الأبيض علق استقلال فلسطين على اشتراك الصهيونيين وهو ما كانوا يرفضونه لأن مطالبهم كانت قد بدأت تتجه إلى إنشاء « دولة يهودية » كما أن العرب رفضوا الكتاب الأبيض لأن إعلان الاستقلال فيه أرجئ إلى ما بعد فترة انتقال حددت بعشرة أعوام ولأسباب أخرى .

وكانت الثورة الجديدة التى بدأت فى ٢٦ من سبتمبر ١٩٣٧ لاتزال مستمرة وظلت مستمرة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

ولقد لخص بعض المؤرخين الإنجليز الموقف فى هذه المنطقة العربية بأن «تقسيم العالم العربى بواسطة بريطانيا وفرنسا بموافقة عصبة الأمم ترتب

---

(١) The Royal Institute, The Middle East p. 32. ص ٣٢ ، ١٩٥٥

(٢) أكرم زعيتر ، نفس المرجع ، ص ١٤٢ .

عليه أنه منذ عام ١٩٢٠ أصبحت وحدة هذا العالم العربي فى ظل نظام سياسي مستقل هدفاً رئيسياً للقومية العربية . وقد عبر أكثر من مؤتمر من مؤتمرات التحرر العربي عن هذه الفكرة . وتفرق عدد من قادة الحركة الاستقلالية العربية بين الأقطار العربية المختلفة شاغلين مناصب سياسية هامة فى سورية وفلسطين والعراق ومصر محتفظين بالكثير من ذكريات الزمالة . حريصين على تبادل المشورة وهو ما كانوا قد اعتادوا عليه أثناء جهادهم ضد الإمبراطورية العثمانية وبذلك تجمعت عناصر الوحدة . . . إن مقاومة عرب فلسطين المستمرة للهجرة اليهودية أيقظت عطف وتعاون باقى الشعوب العربية . ونمو فكرة الوطن القومى اليهودى دفع الدول العربية إلى الوحدة لتجابه ما شعر الجميع أنه خطر مشترك(١).

(١) المعهد الملكى ، نفس المرجع ، ص ٣١ – ٣٢ .

الفصل الثالث

وحدة الكفاح

انتهينا فى الفصل الأول من هذا الكتاب من إيجاز العنصر الأول من عناصر « العروبة » : وحدة التاريخ ، وفى الفصل الثانى من إيجاز العنصر الثانى : وحدة اللغة والثقافة وكيف انصهرا فى وحدة المعاناة من العدو المشترك ، وبقى أن نوجز العنصر الثالث : وحدة الكفاح فى سبيل الهدف المشترك .

ولقد مر هذا الكفاح — كما أشرنا فى المقدمة — فى عدة مراحل ، فاتخذ فى بادئ الأمر شكل الكفاح فى سبيل التحرير الإسلامى أو « الوحدة الإسلامية الكبرى » .

ولم تقتصر هذه الدعوة إلى التحرير الإسلامى على الجانب الدينى وإنما تضمنت — منذ البداية — عنصراً سياسياً منذ ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر ، وهذا العنصر السياسى هو الذى وضعها بين الحركات العصرية الكبرى للفكر الاجتماعى ، فدعاة التحرر الإسلامى يريدون أن يستمدوا من التضامن الإسلامى تضامناً سياسياً بين جميع الشعوب الإسلامية يتيح لها أن تعمل عملا مشتركاً لتحريرها ولتنظيم هذه الوحدة فى المستقبل ، ولكن ما سوف يكون عليه شكل هذه الوحدة أو هذا التنظيم بالضبط ؟ أاتحاد «كونفيديرالى» إسلامى ؟ أامبراطورية إسلامية ؟ أيجب أن يسبق

التحرير تكوين هذا التنظيم أم يجب البدء بتنظيم الدول الإسلامية التى تم تحريرها ؟ هذه هى المشكلات الرئيسية التى لم يتوصل دعاة التحرر الإسلامى إلى الإجابة عليها إجابات دقيقة(١) .

وقد تبين المتوفرون على دراسة العالم الإسلامى من المفكرين الأجانب أن المسلم أيّاً كان البلد الذى ينتمىّ إليه يشعر بأنه فى أى بلد إسلامى آخر من التركستان إلى مراكش ومن الترنسفال إلى سيبيريا كأنه فى وطنه ، وفى هذا مايوضح فكرة البعض عن العالم الإسلامى الذى — رغم اختلاف المذاهب والفرق والآراء الفقهية — يحتفظ برابطة وحدة يتجه التطور الحديث إلى تغليب مظهرها الاجتماعى على مظهرها الدينى ، وعندما نذكر أن اللغة العربية يتكلمها ثمانون مليوناً وأنها تعد — كلغة دينية — تدرس فى جميع بلاد العالم حيثما وجد مسجد صغير ، نتبين أن الوحدة الإسلامية ليست طاقة إيجابية يمكن التهوين من شأنها(٢) .

كما تبينوا أن الإسلام تسوده روح المساواة الأخوية بين جميع

---

(١) عبد الرازق السنهورى Le Califat, son évolution vers une société des Nations, Travaux du Seminaire Oriental d'Etudes juridiques et Sociales, Geuthnir.
باريس ، ١٩٢٦ ، ص ٥٠٩ — ٥١١ .

(٢) Magali Boisnard, L'Islam et la Politique des Alliés, adaptation de l'Italien.

المسلمين فالصلف العرقى أو الجنسى لا أثر له فى الإسلام؛ إذ أن كل من آمن بالله أخ لغيره من المؤمنين سواء كان زنجياً أو من الملايا أو أوربا(١).

١ — التضامن الإسلامى أساس القانون الدولى الإسلامى وأحد مصادر القانون الدولى العربى

(ا) ابن تيمية

لقد اتخذ كفاح الدعوة إلى التحرر الإسلامى شكلا علمياً منظماً فى الربع الأول من القرن الرابع عشر عندما بدأ تقى الدين أحمد بن تيمية ينشر آراءه عن السياسة الشرعية بعد أن درس الفلسفة اليونانية و « مزجها بما درسه من أصول التشريع والفقه الإسلامى ، وكان يغمره شعور بالحزن عميق على ما وصلت إليه الأمة من الضلالة والهوان » (٢).

والذى يهمنا فى هذا الموضوع هو رأى ابن تيمية فى الوحدة الإسلامية ؛

---

(١) Hans Kohn, Western Civilisation in the Near East. ١٩٣٦ ، ص ٤٥ .

(٢) محمد بديع شريف ، « الصراع بين الموالى والعرب » ، ١٩٥٤ ، ص ١٢٤ .

فإن ابن تيمية كان يرى الوحدة قائمة فى الأصل رغم اختلاف الصحابة فى بعض النقاط ، وقلما وجد بين فقهاء المسلمين من تحمس فى الدعوة إلى وضع سياسة منظمة للاستعراب كابن تيمية؛ فإن العربية هى أحد رموز الإسلام وهو رمز يضفى على الجماعة شخصيتها فهى شعار الأمة ، وفى العدول عن العربية أو إهمالها تتنازل الجماعة عن شخصيتها بينما الواجب الأول على كل شخص وكل جماعة أن ينمى أصالة هذه الشخصية ، وقد أشار إلى ما فعله المسلمون فى صدر الإسلام من فرض اللغة العربية فى سوريا ومصر حيث كانت بعض العناصر تتكلم اليونانية ، وفى العراق وخراسان حيث كانت تستخدم اللغة الفارسية وفى المغرب حيث كانوا يتكلمون البربرية ، ولكن إهمال الأجيال اللاحقة الآثم استخدام العربية فى خراسان لم ينتج عنه إلا اختفاء العربية ، وقد خشى أن يحدث ذلك فى سوريا ومصر اللتين كانت تحكمهما عناصر تركية عندما نشر آراءه ولذلك دعا فى إلحاح إلى وضع سياسة منظمة للاستعراب .

والتضامن الإسلامى عند ابن تيمية — فى رأى بعض المتخصصين من المستشرقين — ليس تضامناً آلياً يستند إلى الاشتراك فى الأرض والعقيدة واللغة وإنما هو تضامن « عضوى » يفترض وجود مقصد أو هدف مشترك ومساهمة كل فرد فى تحقيق هذا الهدف والدولة — طبقاً لما رسمه كتاب « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » — دولة تعاونية تستكمل قوتها وشرعيتها بأن تطلب من جميع أبنائها لا مجرد الطاعة السلبية فحسب ولكن الاشتراك الفعال فى الحياة العامة ، فعقد البيعة

بين الحاكمين والمحكومين إنما يتضمن شركة ميثاقها وهدفها الأعلى هو كتاب الله ، وابن تيمية يذكر الجميع ، الأفراد والدول وجميع الذين يتولون الأعمال العامة أو الخاصة بواجب أن يعدوا أنفسهم بناة مصير واحد يعملون جميعاً فى حدود إمكانياتهم على تحقيق نفس الهدف فالجماعة الإسلامية كما تحللها « السياسة الشرعية » لا يمكن أن توصف قانوناً إلا بأنها اتحاد « كونفيديرالى » طبيعى بين الدول[١] .

وقد أوضح ابن تيمية أن لكل فرد فى الجماعة الإسلامية الحق فى الحياة فإذا لم تكفه موارده الخاصة فإن الواجب الحتمى على الجماعة سواء كدولة أو كقطاع خاص أن تكفل له إمكانيات الحياة المادية ، ومن الناحية السياسية لاحظ المستشرقون أن عالمية الإسلام التى أكدها الفارابى والتى تبرز فى كتب الجوينى والغزالى وفخر الدين الرازى كانت تقرر دائماً أن الدولة الإسلامية الكاملة يجب أن تضم كل العالم فجاء فقه ابن تيمية للمرة الأولى فى تاريخ علم الاجتماع الإسلامى يسوغ توزيع السلطة فى الجماعة الإسلامية ، إذ أن هذه الجماعة التى كانت متوحدة فى عهد السلف لا يتحتم أن تظل متوحدة سياسيًّا فأحداث التاريخ قد فرقتها إلى عدد من الإمارات المستقلة ولكن هذه الوحدة أصبحت تبدو فى التضامن العقائدى الذى تشعر أمامه كل دولة بأنها عضو فى جماعة كبرى مع إحساسها باستقلالها الداخلى .

---

(١) Henri Laoust, Le Traité de Droit Public d'Ibn Taimiya, Institut Français de Damas. بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ٣٥ .

وقد قرر هؤلاء المؤرخون أن ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية قد استند إليهما منذ قرن ونصف قرن لا المنادون بتوحيد المذاهب فحسب ، ولكن جميع الذين يجاهدون بين اتجاهات الآراء المختلفة لبعث حركة جمع وتكتل تقوم على الإيمان بوحدة الأصل والمصير المشترك (١) .

ولا شك أن هذه الآراء التى نادى بها ابن تيمية إنما كانت صدى لما أصاب « وحدة » العرب فى التاريخ القريب السابق لمولده وأثناء حياته من تصدع ،ولتسلل العناصر الأجنبية إلى مراكز الحكم الحساسة فى الدولة العربية ، ولتوالى ظهور دويلات إسلامية لم تكن تدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، كالهوارة الخوارج الإباضية فى طرابلس وتونس من عام ٧٥٦ إلى عام٧٦١، والرستمية الخوارج الإباضية فى تاهرت بشمال إفريقيا من عام ٧٦١ إلى عام ٩٠٨ والصفرية الإباضية فى سلجماسة بشمال إفريقيا فى الربع الأخير من القرن الثامن والأدارسة فى شمال إفريقيا من عام ٧٩٣ إلى عام ٩٢٣ والدولة الطاهرية فى شرق العراق من عام ٨٢٢ إلى عام ٨٢٨ والدولة الفاطمية الشيعية فى شمال إفريقيا من عام ٩٠٩ إلى ١١٧١ ، ولحادثين تاريخيين عصفا باستقلال هذه الدولة العربية أولهما توالى الحملات الصليبية منذ عام ١٠٩٦ إلى عام ١٢٦٧ أى إلى ما بعد مولد ابن تيمية فى عام ١٢٦٣ ببضعة أعوام عند ما حاول لويس التاسع غزو تونس ، وثانيهما هجوم المغول واستيلاؤهم على بغداد فى

---

(٢) لا أوست ، المرجع السابق .

عام ١٢٥٨ أى قبيل مولد ابن تيمية ببضعة أعوام ، ثم لتفشى عشرات الفرق الإسلامية المختلفة وما تركته الخلافات بينها من فجوات فى وحدة المسلمين . وبذلك عاش ابن تيمية فى مجتمع بعيد عن أن تجمعه وحدة أو ما يقاربها فى الجنس والمنزلة الاجتماعية أو فى الدين أو مذاهبه أو فى القضاء والقواعد التى يتحاكم الناس بموجبها أو فى غير ذلك كله مما يجعل لأفراد المجتمع وحدة لها أسسها وأهدافها وغاياتها المشتركة . . .

التقى فى هذا العصر أقوام من أجناس مختلفة : أتراك ومصريون وشاميون وعراقيون وفدوا إلى الشام وبخاصة بعد خراب بغداد وفرنجة ، وتتار وقعوا فى الأسر وأقاموا فى البلاد ، وأرمن وإسرائيليون ؛ هؤلاء جميعاً وآخرون غيرهم عاشوا فى صعيد واحد على اختلافهم فى عاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم فكان منهم مجتمع لا يعرف الاستقرار (١).

ولقد تبين ابن تيمية — منذ سبعة قرون — أن المجتمع العربى لم يكن يعترف فيه إلا بطبقتين أولاهما طبقة الأمراء وثانيتهما طبقة العلماء وكبار رجال الدين ولذلك خص بكفاحه طبقة ثالثة ، تشمل العامة والشعب من تجار وصناع وزراع وهم الذين عليهم الكد والكدح ولم يكن الواحد منهم يصل إلى ثمرة عمله كله لما كان ينوبهم من مظالم ومكوس مختلفة . . . وكان الشيخ ابن تيمية يعنى كل العناية بهذه الطبقة العاملة فهو عليها حان عاطف ، ولها موجه مرشد ، وكثيراً ما عمل لرفع ما كان ينزل بهم من

(١) محمد يوسف موسى ، ابن تيمية ، أعلام العرب ، ٥ ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

مظالم على اختلاف ضروبها(١).

وكان كفاح ابن تيمية في سبيل إقرار وحدة الدول الإسلامية يستند بداهة إلى مهاجمة عوامل الفرقة بين العرب المسلمين وفي مقدمتها الفرق الإسلامية التي رأى في مبادئها انحرافاً. ومهاجمة الفساد الذي كان استشرى في أجهزة الحكم ، والدعوة إلى عد الجميع حاكمين ومحكومين بناة مصير واحد، كما أنه كان منطقياً مع أحداث التاريخ ومع الواقع العملي في عدم التمسك بعالمية الدولة الإسلامية أي بعدم جواز تعدد الأئمة ، وإن حرص على أن تكون كل دولة — مع إحساسها باستقلالها الداخلي — عضواً في جماعة إسلامية كبرى تشمل العالم الإسلامي وهذا ما حدا بالمستشرقين إلى أن يصفوا دعوته بأنها دعوة إلى إقامة « اتحاد كونفيديرالي » بين الدول الإسلامية ، كما أن ابن تيمية تنبه — منذ ذلك الزمن الطويل — إلى أن هذه الوحدة لا يمكن أن تتحقق بالاعتماد على الأمراء والعلماء فحسب فعني بعامة الشعب وأصر على أن يساوي بينهم وبين الطبقات الأخرى باعتبار الجميع بناة مصير واحد . وأبرز دور اللغة العربية فجعلها شعار الأمة ورمزاً لأصالة شخصيتها(٢) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٢) Henri Laoust, Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques de Takei-el-Din Ahmad b. Taimiya, Institut Français d'Archéologie Orientale القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ٢٥٢ — ٩

(ب) مذهب التحرر الإسلامى الحديث
محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢)
محمد بن سعود (١٧٣٥ ـ ١٧٦٦)

وإذا كان ابن تيمية قد استخدم قلمه ولسانه للكفاح فى سبيل التحرر الإسلامى، وتحقيق الوحدة الإسلامية الكبرى؛ فإن مبادئه التى تضمنتها كتبه العديدة ظلت نحو أربعة قرون مرجعاً للمفكرين الذين شاركوه الحزن على ما وصلت إليه الدول الإسلامية من التصدع والفرقة والتمزق وعلى ما نال المسلمين من أذى بسبب البدع والمفاسد التى أدخلت على الإسلام ظلماً ، وكان محمد بن عبد الوهاب قد دعا إلى ذلك بعد أن أبعد من « العينية » فى نجد عام ١٧٤٠ والتجأ إلى صديقه محمد بن سعود واشترك الاثنان فى الدرعية فى نشر مذهبهما الجديد الذى إن استوحى من مذهب ابن تيمية فإنه افترق عنه فى بعض الأمور ، فنادى الوهابيون بالتضامن العقائدى كما نادى به ابن تيمية الذى لقى قبولا لديهم ولو أنهم اتجهوا بهذا التضامن اتجاهاً « عرقياً » عربياً ولم ينادوا إلا مؤخراً بفكرة التعاون الدولى التى نادى بها ابن تيمية والتى سبق أن ذكرنا أنها كانت ترمى إلى جمع الدول الإسلامية ــ على اختلاف أجناس المسلمين ولغاتهم ــ فى شبه اتحاد « كونفيديرالى » ولما انتهى الوهابيون إلى الاقتناع بفكرة التعاون

الدولى سار محمد بن عبد الوهاب شوطاً أبعد من الشوط الذى قطعه ابن تيمية فى المناداة بالمساواة التامة بين المسلمين ، ولما كانت الجماعة الإسلامية — ككل جماعة إنسانية — تنطوى حتماً على خلافات سياسية فإن محمد ابن عبد الوهاب ومن خلفوه من أتباعه ساير ابن تيمية فى عدم التعرض مباشرة لمشكلة الخلافة ، فإن عالمية الخلافة النظرية — كجهاز فوق الدول — كان لا يساير اتجاه الوهابيين « العرقى » العربى إذا ذكرنا أن الخلافة إذ ذاك كانت قد انتقلت بتنازل المتوكل على الله منذ عام ١٥١٧ أى قبل ظهور الوهابية بنحو قرنين إلى آل عثمان ، وبانتقال مقر الخلافة إلى القسطنطينية عاصمتهم وهم الذين لم تكن تربطهم بالعرب وحدة التاريخ ولا وحدة اللغة والثقافة ولا وحدة المعاناة من العدو المشترك كما سبق أن أوضحنا ، ولذلك كان معقولاً أن يعد الوهابيون سلاطين آل عثمان غاصبين ولو أنهم لم يستطيعوا أن ينادوا علناً بالثورة ضد أولئك الغاصبين ، كما أن الوهابيين لم يفكروا جدياً فى احتمال استعادة الخلافة ، وكانت الدولة التى نادى ابن تيمية بإنشائها دولة تعاونية يبرز فيها حق كل فرد فى المساهمة فى حياة الجماعة السياسية فجاء الاجتماع السياسى عند الوهابيين يضع ذلك المبدأ على رأس مبادئهم ويدفع به إلى حد أن فكرة التضامن الاجتماعى عندهم غلبت الحرص على وحدة الجماعة الملتزمة بطاعة الإمام طاعة مطلقة والولاء له على حقوق الأفراد ، وقد اتسم كفاح الوهابيين بطابع استخدام القوة المسلحة . وتطورت الدعوة الوهابية فاتخذت شكل توسع سياسي بالإغارة على المناطق المجاورة فى ٢٤ من يناير سنة ١٧٤٦ وهو

موقف لم يرض به بنو خالد من الأحساء وآل المكرمى من نجران . ولما قوى ساعد الدعوة الوهابية أخذ أشراف مكة يتهمون الوهابيين السعوديين بالمروق . واستنجدوا بحكومة الآستانة عام ١٧٤٨ . وتوفى محمد بن سعود عام ١٧٦٦ بعد أن حكم الدولة التى أنشأها ثلاثين عاماً . فخلفه ابنه عبدالعزيز الذى قضى الثلاثين عاماً الأولى من حكمه فى محاربة خصوم أبيه بنى خالد وآل المكرمى . حتى تمكن عام ١٧٩٥ من دخول الأحساء وقطيف . وثبت أقدام الدولة الناشئة على الخليج العربى إلى حد أن ولاة الدولة العلية فى البصرة و بغداد الذين تعاونوا مع خصوم أسرة سعود من العرب قد خابت جهودهم فى وقف نمو تلك الدولة العربية السعودية . فلم توفق حملة الشيخ ثوينى المنتفق عام ١٧٩٧ ولا حملة كخيا على باشا عام ١٧٩٨ ، واضطر الوالى التركى فى العراق إلى أن يتهادن مع عبدالعزيز ست سنوات كما اضطر غالب شريف مكة أن يتصالح معهم عام ١٧٩٨ وأن يعيد إليهم حقهم فى حج بيت الله .

وفى أبريل عام ١٨٠٠ حج سعود بن عبد العزيز إلى بيت الله وانضمت إلى السعوديين قبيلة بنى حرب التى كانت تناصر الشريف غالب . وفى ٢١ من أبريل عام ١٨٠٢ هاجم سعود كربلاء للثأر من قبيلة خزاعة الشيعية التى كانت قد اعتدت على قافلة وهابية وهدم أماكن العبادة الشيعية فيها . وفى ١٨ من فبراير عام ١٨٠٣ ضم السعوديون مدينة الطائف إلى دولتهم . كما دخل سعود مكة فى ٢٠ من أبريل من نفس العام .

وقد وصف أحد المؤرخين هذه الدولة بأنها دولة إسلامية ذات قوة ضخمة غازية امتدت من حلب إلى اليمن و بأنه فى أول القرن التاسع عشر انتشرت مبادئ الوهابيين فى برما وجزر الهند الهولاندية كما أنها — بفضل الدعاية المدهشة لتطهير الدين من البدع — قد وصلت إلى قبائل النيجر(١).

وذهب أحد رجال السلك السياسى فى بغداد إلى أن « فكرة الغزو قد انتشرت بين جميع الطبقات وذكرى قوة العرب الغابرة أحيت فى قلب أضعف الناس الأمل الحلو فى أن يحكمه أمراء من أهل وطنه .

ولم يكد يقبل عام ١٨٠٨ حتى كان سعود قد أتم غزو شبه الجزيرة العربية فأصبحت مملكته تضم إلى جانب نجد الحجاز والعسير واليمن وحضرموت والأحساء والبحرين والبصرة ، وفى الشمال امتدت سلطته إلى حوران وكانت قواته المعسكرة فى وادى سرحان تهدد دمشق وبغداد فى نفس الوقت وبذلك عادت الجزيرة العربية فاتحدت بين يدى زعيم واحد(٢).

وقد هدد توسع الوهابيين ثلاث دول كانت تطمع فى الشرق العربى : إيران التى دفعت شيعياً إلى قتل عبد العزيز بن محمد بن سعود فى عام ١٨٠٣ ، وإنجلترا التى أرسلت حملة قصفت رأس الخيمة على

---

(١) Robert Montagne, La Civilisation du Désert
١٩٤٧ ، ص ١٦٤ — ١٦٦

(٢) Jean Raymond, Mémoire sur l'Origine des Wahhabis.
الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٠٦ ، ص ٩٢٥

الخليج العربى بالقبائل وتركيا التى لضعفها لم تستطع أن تشتبك ـ مباشرة ـ فى حرب مع الوهابيين فلجأت إلى مصر [١] .

ولقد حلل أحد المؤرخين العرب كفاح الوهابيين ضد العثمانيين بأنه كان تعبيراً عن الفكرة العربية وأول محاولة جدية فى الزمن الحاضر لتحقيق وحدة العرب فى دولة عظيمة وأن الوهابية قدمت قوة دافعة جديدة للحركة التقليدية الإسلامية العربية والاستعانة على تحقيقها بالكفاح المسلح بحد السيف [٢] .

وأكد البعض أن الحركة الوهابية هى بلا شك أول مرحلة للتحرر الإسلامى الحديث وأن الوهابيين عندما ألقوا بجيوشهم على المدن المقدسة كانوا يحلمون بأن هذه هى الخطوة الأولى نحو الغزوة الكبرى التى يتم بها تطهير الدين من البدع وتوحيد العالم الإسلامى ، ومع أنهم لم يتمكنوا من ذلك فإن الوهابية قد أثارت حركات سياسية عميقة فى مناطق نائية كشمال الهند وأفغانستان فإن هذه الثورات السياسية كانت وثيقة الصلة بالحركة الوهابية ؛ إذ أنها كانت ضد الانحراف السياسى فى الدول السياسية والانحراف الخلقى لبعض رؤساء الدول الإسلامية .

---

(١) ص ٨٤ Benoist-Mechin, Ibn Séoud,

(٢) حسن صعب The Arab Federalists of the Ottoman Empire أمستردام ، ١٩٥٨ ، ص ١٥٧ .

وفى منتصف القرن التاسع عشر تغير الموقف فى العالم الإسلامى تغيراً ساعد على تكتل جبهات الكفاح ضد العدو المشترك ، فقد غزت فرنسا الجزائر واستولت روسيا على بعض المناطق الإسلامية فى آسيا وتمت سيطرة بريطانيا على كل الهند تقريباً فانتهى المفكرون المسلمون إلى أن الإسلام يتعرض لخطر داهم وعندئذ اتجه كفاح الداعين إلى التحرر الإسلامى إلى الدول الغربية الاستعمارية ، وكان هذا الكفاح فى أول الأمر كفاحاً مشتتاً متفرقاً لا تناسق فيه ولو أنه أبرز بطولات كبطولة عبد القادر فى الجزائر وغيره ممن كافحوا الغزاة الأجانب كفاحاً عنيفاً ولكن خشية التوسع الاستعمارى الغربى والسخط على الغزاة أخذا يتفاقمان فلم يكد يقبل عام ١٨٧٠ حتى كانا قد عما العالم الإسلامى بأجمعه (١) .

(حـ) مذهب التحرر الإسلامى المنظم

محمد بن على السنوسى (١٧٨٧ – ١٨٥٩)

كانت الدعوة التى نادى بها محمد بن على السنوسى الذى ولد فى الجزائر وشهد فى شبابه إعدام أستاذه أثناء الحكم التركى وتنقل بين مراكش ومصر بعد أن استولت فرنسا على الجزائر ثم الحجاز هى أول مراحل التحرر الإسلامى المنظم .

---

(١) Lothrop Stoddard, Le Nouveau Monde de l'Islam. باريس ، ١٩٢٣ ، ص ٥٠ – ٥١ .

وقد انتهى محمد على السنوسى — بعد إعمال الفكر — إلى نتيجتين هامتين : أولاهما أنه فى حاجة إلى تحصيل علوم أخرى غير العلوم العقلية والنقلية التى تلقاها فى الجزائر وغيرها من بلاد المغرب العربى . وثانيتهما أن العوامل التى عاقت نهضة الإسلام إنما كانت فى اختلاف المذاهب وكثرة الطرق والحكم الفردى. ولذلك انحصرت آماله فى العمل على تحقيق وحدة الشعوب الإسلامية .

وقد قرر بعض المؤرخين العرب الذين توفروا على دراسة السنوسية فى تلك الفترة بعد أن انتشرت تعاليمها فى برقة وطرابلس ، اللتين كانتا تابعتين لتركيا منذ منتصف القرن السادس عشر ، «أن سلطان العثمانيين ما كان يتعدى المنطقة الساحلية بمدنها الكبيرة ذات العدد القليل، وأن الدولة كانت فى حاجة واضحة إلى يد قوية تستعين بها فى ضبط الأمور على أساس استتباب الأمن وإخماد الفتن والمصادمات فى داخل البلاد . وما كان لأحد غير السيد الكبير بما ظهر من تعلق العرب به وإصغائهم لنصحه وإرشاده ، أن يتمكن من إسداء هذا المعروف لمصلحة السلم والطمأنينة واجتماع الكلمة ونبذ التنافر والخصام بين جميع المسلمين وشعوبهم .

ولم يكن السيد إلا داعية عظيماً للاتحاد ويقظة العالم الإسلامى . وقد أثمر اعتراف الدولة العثمانية — عن طريق واليها فى طرابلس — بالإمارة الواقعية للسيد السنوسى الكبير خير ثمرة فكان العرب يحترمون أوامره ويطيعون الأتراك بناء على نصائحه، والسيد كان يرى فى هذه الطاعة فائدة وقوة للمسلمين . ومن جهة أخرى ترك العثمانيون من ذلك الحين حكومة

داخل البلاد فى يد السادة السنوسية ، وهكذا شهد تاريخ السيد الكبير بداية هذه الحركة العظيمة تنتقل من مجرد دعوة إلى الدين الصحيح وإرشاد لاتباع أثر السلف الصالح إلى دعامة من دعامات الحكم فى العالم الإسلامى وإمارة منضوية تحت لواء الخلافة العثمانية (١) .

وقد بلغ من نجاح السنوسية فى هذه المنطقة العربية من إفريقيا أن اتخذها شريف سلطان « واداى » بالسودان أساساً روحياً للمنطقة التى كان يحكمها . وهى منطقة متاخمة من الغرب لمديرية دارفور العربية السودانية . وفى إيجاز نستطيع أن نقرر — مع مؤرخى السنوسية — أن هذه الإمارة العربية قد قامت على ثلاثة أصول :

أولها : الأصل الدينى وقد سبق أن لخصناه .

وثانيها : الأصل الاجتماعى ، وكان أهم مظهر له إنشاء الزوايا .

ثالثها : الأصل السياسى . وكان يهدف إلى جمع كلمة المسلمين فى إفريقيا داخل نطاق وحدة سياسية كبرى .

وقد توفى السيد محمد بن على السنوسى الكبير فى ٧ من سبتمبر

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، السنوسية دين ودولة ، ١٩٤٨ ، ص ٣٠ — ٣١ ، وقد أشار فى ص ٥١ إلى أن اعتراف الأتراك بهذه الإمارة السنوسية « لم يكن أمراً غريباً ، فقد وجدت تركيا من الخير المحافظة على كيانها أن تكون على وفاق مع الإمارات العربية التى لم يكن فى استطاعتها القضاء عليها . ولذلك اعترفت بإمارات آل سعود على نجد وآل رشيد على حائل . وآل الصباح على الكويت . . . ويجمل الحقيقة أن السنوسية بدأت طريقة ثم اشتد أزرها فقويت دعوتها إلى إحياء العالم الإسلامى . . . ولم تلبث أن احتلت مكان الإمارة والصدارة » .

عام ١٨٥٩ ودفن بجغبوب بعد أن بلغ عدد الزوايا التى أنشأها اثنتين وعشرين زاوية .

وقد خلفه ابنه السيد المهدى فزاد فى عهده عدد الزوايا السنوسية ؛ إذ بلغ العدد عام ١٨٨٤ نحو المائة منتشرة بين برقة وطرابلس وفزان وطريق مصر ، وطريق واداى ، وشبه الجزيرة العربية ، والجريد بتونس ، ومراكش.

وقوى نفوذ السنوسية فى إفريقيا العربية . ودعم ذلك النفوذ فى عهد محمد المهدى السنوسى تعليم السنوسيين استعمال الأسلحة التى كانت تهرب من ميناء طبرق .

وأخذ نجاح السنوسية وتغلغها فى إفريقيا العربية يقض مضاجع السياسة الاستعمارية الأوربية ، وخاصة السياسة الفرنسية التى كان سباقها الاستعمارى مع بريطانيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد بلغ أقصى حدته . ولذلك نبه المؤرخون الفرنسيون إلى أن فى السنوسية خطراً عظيماً يهدد المسيحية فى القارة الإفريقية ويعطل مصالح الدول الأوربية التى تريد استعمار شعوب هذه القارة المظلمة وتحرض الأهلين فى الممتلكات الفرنسية وفى بلاد الجزائر خصوصاً على القيام بالثورة . . . وأهم ماعنى هؤلاء الكتاب بإظهاره وتصويره ... أن السنوسية هى أكبر وأنشط الوسائل التى يستطيع عن طريقها دعاة الجامعة الإسلامية تحقيق أهدافهم (١) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٦ — ٦٨ — وقد استند على كتاب Duveyrier الذى أسماه La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed Ben Ali Es Senousi وصدر بباريس عام ١٨٨٦ .

وهذه الفكرة ذاتها هى التى دعت هذا الفريق من الكتاب الفرنسيين إلى الاعتقاد بأن أحمد عرابى لم يقدم على الثورة فى مصر عام ١٨٨١ وعلى محاربة بريطانيا عام ١٨٨٢ إلا باتفاق مع السنوسيين . وقد كتب « دوفيرييه » بهذا المعنى إلى « برودلى » المحامى البريطانى الذى دافع عن عرابى وكانت ثورة محمد أحمد المهدى فى السودان معاصرة للثورة العرابية فى مصر . وقد ثبت أن زعيم المهديين قد حاول الاستعانة بالسنوسيين لإخراج الإنجليز من وادى النيل .

وقد دعم نفوذ السنوسية أن اتجهت – بعد انتقال مقر قيادتها إلى الكفرة فى قلب الصحراء – اتجاها سياسيًّا لم يكن خاضعاً على الإطلاق إلى أى تدخل سواء من الحكومة التركية صاحبة السيادة على ليبيا أو من أية حكومة أجنبية أخرى، وقد وصف بعض المؤرخين الإيطاليين هذه الفترة من تاريخ السنوسية أى الفترة التى أعقبت انتقال محمد المهدى ابن مؤسس السنوسية إلى الكفرة بأن هذا الانتقال « قد كشف عن نواياه الصحيحة أو بالأحرى عن الأهداف الزمنية أو الدنيوية السياسية التى صارت الطريقة تبغى تحقيقها وهى إنشاء ملك مستقل كامل السيادة يمتد عبر القارة الإفريقية من الحدود المصرية شرقاً إلى شواطئ الأطلنطى غرباً فيضم بين جوانبه الأقطار الليبية برقة وطرابلس والفزان ثم صحراء الجزائر ومنطقة تشاد ويسيطر على كل طرق التجارة من ساحل البحر الأبيض شمالا إلى السودان جنوباً » .

وتبين محمد المهدى السنوسى أن على دينار سلطان دارفور يشاركه

عداوة فرنسا التى كانت إذ ذلك تتسابق مع بريطانيا على اغتصاب الأراضى السودانية ، فاتفق الاثنان على العمل معاً ضد الخصم المشترك إلى ديسمبر عام ١٩٠١ عندما اتفقت الحكومتان الفرنسية والإيطالية على تحديد منطقتى النفوذ فى إفريقيا ، وهو الاتفاق الذى اختصت إيطاليا فيه بمنطقة برقة وطرابلس . وكانت إيطاليا قد سبق أن حصلت من بريطانيا عام ١٨٩٥ ومن فرنسا عام ١٨٩٩ على الحق فى إطلاق يدها فى منطقة شاطئ البحر الأبيض المتوسط القريبة من شواطئ إيطاليا . وفى ٣ من أكتوبر عام ١٩١١ أطلقت السفن الحربية الإيطالية بقيادة الأميرال فارافيللى مدافعها على قلعة العثمانية عند مدخل ميناء طرابلس وعلى قلعة حميدية عند أقصى شرقى طرابلس وعلى قلعة سلطانه فى غرب الميناء ، وقد ظل إطلاق قذائف المدافع مستمراً حتى ٥ من أكتوبر عندما نزلت القوات الإيطالية إلى هذه الأرض العربية وتم احتلالها بقيادة الجنرال كانيفا .

وفى ١٩ من أكتوبر أطلقت السفن الإيطالية بقيادة الأميرال أوبرى قنابلها على بنغازى وتم احتلالها بقيادة الجنرال بريكولا فى اليوم التالى كما تم احتلال درنة الخمس فى يومى ١٨ و ١٩ من أكتوبر . . . وكان الوعى فى الدول العربية الإسلامية قد سار شوطاً بعيداً نحو النضوج . . . وبلغ عدد المتطوعين فى بدء العام التالى لذلك الاعتداء الآثم ستة عشر ألفاً ، وسارعت مصر بتشكيل لجنة عليا فى ١٤ من أكتوبر عام ١٩١١ ، أى عقب الاعتداء ببضعة أيام ، لجمع التبرعات ، كما شكلت جمعية

الهلال الأحمر المصرية برئاسة المرحوم الشيخ على يوسف صاحب صحيفة « المؤيد » وأوفدت بعثتها الطبية الأولى في ٧ من نوفمبر عامئذ مزودة بمعدات مستشفيات الميدان ، وكان ذلك فى اليوم التالى لإعلان إيطاليا وضع طرابلس وبرقة تحت سيادتها .

وذلك الوعى الإسلامى هو الذى حدا بأن تضم قائمة المتطوعين القادمين من مختلف الأقطار العربية الإسلامية أسماء لمعت فيما بعد عندما اتخذ هذا الوعى شكلا آخر ، وهو شكل « مذهب التحرر العربى » .

(د) مركز الانطلاق الثانى للتحرر الإسلامى المنظم

جمال الدين الافغانى (١٨٣٩ – ١٨٩٧)

يرى بعض المؤرخين أن الحركة التى اتصلت بشخصية جمال الأفغانى تعد مركز الانطلاق الثانى للتحرر الإسلامى الحديث (١) باعتبار أن الوهابية بداية التحرر الإسلامى الحديث والسنوسية أول مرحلة للتحرر الإسلامى المنظم .

وقد أبرز المستشرقون كيف استكمل الكفاح فى سبيل التكتل بين كل الشعوب العربية الإسلامية مقوماته فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بصور متعددة فى المغرب وفى الشرقين الأدنى والأوسط وعلى وجه أخص فى مصر مركز التجمع لكل خصوم الإستبداد التركى فى عهد

---

(١) ستودارد ، نفس المرجع ، ص ٦٢ .

عهد الحميد ووطن تجديد اللغة العربية ، فحركة الإصلاح انطلقت من مصر وإلى حد كبير من مصر وسوريا ، إذ أن هذه الحركة قد استفادت من مركز القاهرة الممتاز فى العالم العربى لنشر عدد من الكتب المثيرة المتميزة بطابع خاص على أوسع نطاق ، وأن رائدى هذا الإصلاح الإسلامى المصرى اللذين ذاع صيتهما هما السيد جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده(١) . وقد اشترك الاثنان فى إصدار صحيفة « العروة الوثقى » بالعربية التى صدر العدد الأول منها فى ١٣ من مارس عام ١٨٨٤ ، وهى الصحيفة التى دعت إلى التحرر الإسلامى فمنعت الحكومة البريطانية دخولها إلى جميع الأقطار الإسلامية التى كانت خاضعة لنفوذها . ولم يطل عمر هذه الصحيفة لما لاقته من مقاومة استعمارية جبارة فلم تظهر بعد عددها الذى صدر بتاريخ ١٧ من أكتوبر عام ١٨٨٤ . ويقرر المستشرقون الأوربيون عنها أنها « كان لها شأن عظيم فى إذكاء الآراء الحرة المناهضة للإنجليز فى الأوساط الإسلامية ، بل يمكن أن تعد باكورة الحركات القومية فى الممتلكات الإسلامية التابعة لإنجلترا ، فقد أخذ ساعد هذه الحركات يشتد بفضلها شيئاً فشيئاً وظلت العروة الوثقى حافظة لشأنها إلى يومنا هذا .. وقد كان جمال الدين يثير الخواطر على الإنجليز علناً وفى غير مواربة . إلا أن قادة الساسة الإنجليز قبلوا بواسطة بلنت أن يدخلوا فى مفاوضات

---

(١) Henri Laoust, Le Réformisme musulman dans la littérature arabe contemporaine, Orient.

باريس ، العدد ١٠ ، ص ٨٣ – ٨٤ .

شخصية مع جمال الدين لإخماد حركة المهدى فى السودان ، ولكن هذه المفاوضات لم تنته إلى نتيجة عملية .

وقد لخص بعض المستشرقين أثر جمال الدين فى حركة التحرر الإسلامى بأنه « أثر كبير فى الحركات الحرة والحركات الدستورية التى قامت فى الدول الإسلامية إبان العقود الأخيرة من السنين السوالف ، وكان يرمى من تهييج الخواطر إلى تحرير هذه الدول من النفوذ الأوربى واستغلال الأوربيين ،والنهوض بها نهوضاً ذاتياً من الداخل متوسلا فى ذلك بإدخال النظم الحرة إليها . كما كان يهدف إلى جمع كلمة الدول الإسلامية بما فيها الشيعية تحت راية خلافة واحدة وإقامة إمبراطورية إسلامية قوية تستطيع الوقوف فى وجه التدخل الأوربى . كان جمال الدين بقلمه ولسانه من أكبر الدعاة إلى فكرة الجامعة الإسلامية ومن أشدهم إيماناً بها» (١) .

ورأى أحد المؤرخين العرب المحدثين أن الأفغانى كان ينادى بإقامة اتحاد إسلامى على نسق الاتحاد الألمانى « فيديرالى » وكان مدركاً لصعوبة تحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة ولذلك كان ينشر فى كل بلد إسلامى الشعور بأنه جزء من جماعة أكبر ، وكان الأفغانى يدعو إلى هذا الاتحاد الإسلامى على أسس دستورية وإلى تحويل الملكيات الإسلامية إلى دول دستورية(٢) .

---

(١) Goldziber ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ٧ ، ص ٩٥ .

(٢) صعب ، نفس المرجع ، ص ١٩٠ — ١٩٢ .

محمد عبده (١٨٩٤ — ١٩٠٥)

برنامج إصلاحى متسم بطابع التحرير الإسلامى

كان من أهم ما عنى به المؤرخون لإبراز كفاح جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى سبيل التحرر الإسلامى الحديث المنظم هو مجهود جمعية العروة الوثقى وصحيفتها التى كانت تحمل اسمها ، ويتضمن برنامج هذه الجمعية :

١ — أن تكون خدمة للشرق فى بيان واجباته التى كان التفريط فيها موجباً لضعفه وسقوطه ، وتوضيح الطريق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت .

٢ — تبحث فى أصول الأسباب والعلل التى قصرت بهم إلى جانب ذلك التفريط فوقعوا فى هذه الحيرة الرابكة التى ضل بها الرشد وعميت فيها عليهم السبل فلا يدرون من أين تفجعهم الطوارئ المزعجة .

٣ — تكشف الغطاء عن الشبهة التى شغلت أوهام المترفين فضلوا مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة عللهم وشفاء أدوائهم .

٤ — تحاول إشراب الأفهام سهولة الأمر والنجاح فى المقاصد إذا عقدت العزائم .

٥ — وتبين للناس أن هذا النجاح مقصود بالتمسك بالأصول التى كان عليها أسلافنا التى هى كفيلة فى رد العزة والقوة وقد تمسك بها بعض الدول الأجنبية فقويت وعزت .

٦ — وتنبه على أن الروابط بين الدول يجب أن تكون على أساس التكافؤ بالقوى، وهذا التكافؤ هو الضامن لدوام العلاقات، وإذا فقد التكافؤ فإن الرابطة تكون وسيلة لابتلاع القوى الضعيف .

٧ — تخبر أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة بما يتهمهم به أعداؤهم وتدافع عنهم وتبين لهم ما يدور حولهم من الحوادث الجسام فى السياسة .

٨ — تراعى تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها ونصر السياسات القديمة التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

ومما يدل على طابع الكفاح الدولى فى سبيل الدعوة إلى التحرر الإسلامى أن محمد عبده غادر باريس إلى تونس حيث نشر الدعوة إلى « العروة الوثقى » . ولما انقضى بعض الوقت تميز برنامج محمد عبده المتسم بطابع التحرر الإسلامى بالتوفر على الناحية الإصلاحية والعناية باللغة العربية وإعادتها إلى نقاوتها الأولى (١) .

ولعل فى تنقل محمد عبده فى المنفى بين بيروت ثم تونس ثم بيروت مرة أخرى ، يلقى ضوءاً على ما كان قد بدأ يتجمع فى أفق التفكير العربى

---

(١) لا أوست ، الإصلاح الإسلامى ، ص ٨٤ .

من عد هذه المنطقة كلها وطناً واحداً يتنقل فيه العربى ويتبادل الأفكار مع غيره ممن تربطه بهم رابطة اللغة والثقافة وينشر فيه آراءه كما فعل محمد عبده والأفغانى من قبله .

عبد الرحمن الكواكبى
(١٨٤٨ - ١٩٠٢)

العروبة السياسية

مفكر سورى من حلب من أقطاب مذهب التحرر الإسلامى وقد بدأ جهاده بإصدار جريدة « الشهباء » التى عطلتها الحكومة التركية فاستتر وراء آخر وأصدر صحيفة « الاعتدال » ولكن الحكومة التركية عطلتها هى الأخرى فاشتغل بالمحاماة فترة ثم هاجر إلى مصر حيث التقى بزعماء الدعوة إلى مذهب التحرر الإسلامى ومنهم رفيق العظم ورشيد رضا وعلى يوسف صاحب « المؤيد » الذى مكنه من نشر مجموعة المقالات التى أصبحت فيما بعد مادة كتابه « طبائع الاستبداد » .

ويبدو جهده الإيجابى فى سبيل دعوته الإصلاحية على صفحات كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » . وقد نشر الأول مقالات فى بعض الصحف عند ما كان بمصر ثم جمعها فى كتاب[1] . وقد ابتدع كتابه

(١) أحمد أمين ، « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث» ١٩٤٩ ص٢٥٢ .

« أم القرى » على لسان ممثلين للبلاد الإسلامية جميعها وجعلهم على هيئة مؤتمر تعرض فيه أحوال المسلمين وأسباب فتورهم وانهيار قواهم وجعل مكة ، أم القرى ، مركزاً لهذا المؤتمر الذى كان فيه المؤمن الشامى والقدسى والإسكندرى والمصرى واليمنى والبصرى والنجدى والمدنى والمكى والتونسى والفاسى والإنجليزى والرومى والكردى والتبريزى والتاتارى والقازانى والأفغانى والهندى والسندى والصينى .

وقد انتهى إلى أن تأخر المسلمين يعود إلى أسباب ثلاثة : دينية سياسية وأخلاقية ، وأن أصول الأسباب السياسية هى السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية وحصر الاهتمام السياسى بالجباية والجندية فقط ، واعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء ، وتفويض خدمة الدين للجهلاء ، وقلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها للفقراء ، وإبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار ، وفقد قوة الرأى العام بالحجر والتفريق ، ومراغمة الأمراء السراة الهداة والتنكيل بهم ، وفقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة ، وميل الأمراء للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين ، وأخيراً تخيل أن ذلك المؤتمر الإسلامى قد أصدر القرار التالى :

« حيث كانت الجمعية لا يعنيها غير النهضة الدينية رأت من الضرورى أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها وأهلها ومن يجاوبهم ، وأن تبسط لأنظار الأمة ما هى خصائص الجزيرة وأهلها العرب عموماً ، وذلك لأجل رفع التعصب السياسى أو الجنسى . ولأجل إيضاح أسباب الجمعية للعرب

فنقول : الجزيرة هى مشرق النور الإسلامى ، فيها الكعبة المعظمة ، وهى أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسية شرقاً وأقصى إفريقية غرباً ، وهى أسلم الأقاليم من الأخلاط ، جنسية وأدياناً ومذاهب ، وأبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب وأفضل الأراضى لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها الطبيعى .

وعرب الجزيرة ، هم ومن يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة والنازحين إلى إفريقية ، مؤسسو الجامعة الإسلامية لظهور الدين فيهم»[(١)]

وقد ذهب مؤرخ عربى إلى أن الكواكبى وقف فى منتصف الطريق

---

(١) ذهب بطرس بطرس غالى فى دراسة عن «الكواكبى والجامعة الإسلامية» المجلة المصرية للقانون الدولى مجلد ١٣ ، ١٩٥٧ ، ص ٥ . إلى أن الكواكبى فى مادة مؤقتة قد اقترح أن يكون المقر الرسمى للجمعية فى سنتيها الأوليين فى بورسعيد أو الكويت على أن ينقل فيما بعد إلى مكة، وقد انتهى بطرس بطرس غالى «المرجع السابق» — ص ٢٨ إلى أن أفكار الكواكبى كانت بذرة طيبة أثمرت فيما بعد ومن ثمراتها المؤتمر الإسلامى الأول الذى انعقد فى القاهرة فى مارس سنة ١٩٢٦ لدراسة مشكلة الخلافة الإسلامية والمؤتمر الإسلامى الثانى الذى عقد فى مكة فى يونية ويولية سنة ١٩٢٦ لدراسة شئون الأرض الإسلامية المقدسة والمؤتمر الثالث الذى عقد فى القدس فيما بين ٧ و ١٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ والمؤتمر الرابع الذى وضع أسسه الرئيس جمال عبد الناصر والملك سعود ورئيس وزراء الباكستان السيد محمد على حين التقوا فى مكة أثناء تأدية فريضة الحج فى أغسطس سنة ١٩٥٤ وقد عين السيد أنور السادات سكرتيراً عاماً له .

بين مذهب التحرر الإسلامى أو الجامعة الإسلامية ومذهب التحرر العربى أو الوحدة العربية الكبرى وكان — طول حياته — مبشراً بالنظام الدستورى[١] ، وقرر آخر أنه بينما كان الأفغانى يدعو إلى توحيد كل العالم الإسلامى تحت خلافة ما دون تقيد بجنسية الخليفة فإن الكواكبى ميز بين العربى وغير العربى ؛ فبينما كان متمسكاً بوحدة الإسلام كان يدعو إلى إنكار حق سلطان تركيا فى الخلافة وإلى تولية عربى قرشى هذه الخلافة[٢] .

وسجل أحد المستشرقين أن الكواكبى يبدو لنا كأحد الرواد الأول للعروبة السياسية ، فالكواكبى ينتقد بعنف الخلافة العثمانية التى دافع عنها الأفغانى ولم يعترض عليها محمد عبده ، كما أنه فى دعوته إلى الإصلاح فى « أم القرى » كان يرى أن يكون بناء هذا الإصلاح من العرب وأبرز ما اقترحه الكواكبى من إنشاء هيئة دولية مقرها مكة لها فروع فى كل الدول الإسلامية للدفاع عن الإيمان ونشره ولتعليم اللغة العربية واللغات الدارجة فى البلاد العربية[٣] .

وإذا كان شراح القانون الدولى الأمريكيون يرون أن بين خصائص هذا القانون « إرادة إنشاء هيئة دولية على أسس قانونية وإقليمية ثابتة ،

---

(١) صعب ، نفس المرجع ، ص ٢٠٢ .

(٢) جورج أنطونيوس The Arab Awakening لندن ، ١٩٤٥ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٣) لا أوست ، الإصلاح الإسلامى ، ص ٨٩ — ٩٠ .

وربما كانت هذه الإرادة أول خطوة تاريخية للقانون الدولى الأمريكى ولمذهب الوحدة الأمريكية الكبرى . . . فهذه الفكرة التى اندمجت – بفضل عصبة الأمم أمس والأمم المتحدة اليوم – فى وعى الإنسانية جمعاء أصلها أمريكى بحت[١] ، فلا شك أن الرد على ذلك أن الكواكبى – قبل إنشاء عصبة الأمم بأكثر من عشرين عاماً – قد دعا إلى إنشاء هذه الهيئة الدولية ، ونشر كتابه « أم القرى » قبل اجتماع المؤتمر الحادى عشر للدول الأمريكية فى المكسيك عام ١٩٠١ – ١٩٠٢ الذى أقر « البروتوكول » الذى استخدم تعبير « القانون الدولى الأمريكى » .

---

(١) M. Yepes, Introduction à l'Etude du Droit International Américain, Rev. Générale de Dr. Intern. Public. باريس ، أكتوبر – ديسمبر ١٩٥٢ ، ص ٢

٢ ــ مذهب التحرر العربى
الهيئات التى عملت خارج حكومات الدول
لتحقيق الاتحاد « الفيدرالى » بين البلاد العربية
طليعة العروبة السياسية
القاهرة مركز العروبة الرئيسى

لخص أحد المفكرين الفترة السابقة على بروز العروبة السياسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بأن جذور القومية العربية المتيقظة القوية تعود إلى العلاقات الثقافية وغنى اللغة العربية ، وذكرى القرون العديدة التى سادت فيها الثقافة العربية حوض البحر الأبيض المتوسط وكذلك الدين الإسلامى ، كل ذلك يكون تقليداً تاريخياً مستمراً ساهم على خلق وعى بين العرب يتجه إلى الوحدة السياسية وإلى الاستقلال [١] .

واستعرض مؤرخ عربى عصرى هذه الفترة فقرر : « هناك أسباب وجيهة لاعتبار عام ١٧٩٨ ــ وهو الذى غزا فيه نابليون مصر ــ نقطة انطلاق العصر الجديد وعلامته البارزة . وما كانت الحقبة التى سيطر فيها نابليون هى بذاتها السبب فى إيقاظ الوعى القومى من سباته العميق فى البلاد العربية ، كما هو شأنها فى أوربا ، ولكنها خلقت الجو لاصطناع

(١) محمد عبد العزيز The Origin and Birth of the Arab League المجلة المصرية للقانون الدولى ، ١٩٥٥ ، ص ٤٠ .

الحضارة الغربية مباشرة ، وركزته ، ومنذ ذلك الحين طفق ذلك الجو يلف العالم بأسره ، ويدور حوله ويسود أقطاره ، وكان امتداده بداية سلسلة من الأحداث والأفكار تكونت منها القومية العربية الحديثة .

كانت أولى نتائج غزوة نابليون ، وأهمها ، أن ألهبت العرب عامة وأيقظتهم على واقعهم ، والوعي القومي لا يستطيع أن يخصب ويثمر فى شكله الحديث وسط مجتمع راكد لا يتطور . والنتيجة الثانية – وهى تلازم الأولى – انتشار الطباعة التى بعثت الروح فى حركة إحياء التراث العربى الثقافى القديم ، وبالتالى فى انتشار الوعي القومى . والنتيجة الثالثة ، انتشار الفكرة الأوربية فى القومية ، على مدى واسع فى دنيا العرب ، فأضيف الاستياء من تحديات الغرب ، إلى كراهية الحكم التركى ، والاعتزاز بتراث الماضى »[1] .

ويذهب بعض المؤرخين الأوربيين إلى أن « الأميريكيين لعبوا أكبر دور فى إحياء اللغة العربية كلغة أدب بعد أن أهملت ثلاثة قرون بسبب تفضيل اللغة التركية الرسمية عليها ، وأنهم أوحوا بأول الآمال الوطنية العربية ، وهى الآمال التى تزعم الترويج لها طلبتهم وبعض المدرسين الذين اختيروا من العرب للتدريس فى المعاهد الأمريكية ، وما بدأ كجمعيات ثقافية تطور ؛ فأصبح حركة تآمر هدفها التحرر المقدس من النير العثمانى» .

---

(١) حازم زكى نسيبه ، القومية العربية ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٤٨ – ٤٩ .

فى عام ١٨٤٧ أسست فى بيروت « جمعية الفنون والعلوم » ، وكان اليازجى والبستانى من أعضائها ، وكانت تضم غالبية من الأمريكيين .

وفى عام ١٨٥٠ أسس رجال الدين الفرنسيون « الجمعية الشرقية » . ضمت بعض السوريين المسيحيين وعدداً من الأجانب .

وفى عام ١٨٥٧ أسست « الجمعية العلمية السورية » وكان تأسيسها نقطة تحول هامة فى الوعى العربى على وجهه الصحيح ،لأنها ضمت أعضاء من المسلمين والدروز والمسيحيين العرب ، كان من بينهم إبراهيم اليازجى ومحمد أرسلان الدرزى .

وفى عام ١٨٨٠ أسست جمعية سرية ضمت أعضاء من المسلمين كانوا قد تلقوا تعليمهم فى « الكلية السورية البروتستانتية » وقد علقت هذه الجمعية فى مدن سورية عدة بيانات من النوع الذى يلصق على الجدران طالبت فيها بلهجة عنيفة باستخدام اللغة العربية كلغة رسمية ورفع الرقابة عن الصحافة وإعطاء سورية ــ بالاتحاد مع لبنان ــ الحكم الذاتى . وحوالى عام ١٨٨٣ عندما ضجر المتآمرون الشبان أعضاء هذه الجمعية من مطاردة البوليس السرى التركى لهم ، وإغلاقه مقر الجمعية وإتلافه لمحاضرها ، تبين عديدون من أنشط أعضائها أن من الحكمة أن يهاجروا إلى مصر ، وقد قرر أحد المؤرخين العرب ــ وهو الذى سجل هذا التطور العربى ــ أن هذه الهجرة والدعوة التى وجهها هؤلاء المهاجرون

المثقفون إلى العاطفة العربية الوطنية قد أحدثت تأثيراً واسع المدى[١] .

وخلال الخمسة والعشرين عاماً التالية كان نشاط حركة التحرر العربى يوجه على الأخص من الوطنيين الذين هاجروا إلى القاهرة وباريس ، أما فى سورية فإن اضطهاد السلطان عبد الحميد للأفكار الحرة قد أسكت إلى حد كبير الأصوات التى كانت قد ارتفعت مطالبة بالتحرر .

وقد سجل مؤرخ عربى من المؤرخين المحدثين هذه الفترة فقرر « أن المثقفين السوريين واللبنانيين قد التجأوا إلى وادى النيل الكريم ، حاملين فى مفكراتهم الصغيرة وفى قلوبهم ، الفكرة الكبرى ، فكرة إحياء النهضة العربية ، وقد قمعت هذه الحركة فى سورية فانتقلت وظهرت فى القاهرة على صفحات الصحف والكتب كما ظهرت فى شبه الجزيرة العربية على شكل حركات التمرد والثورة التى شهدها القرن العشرون[٢] .

ولما ظهر التدخل الأجنبى فى شئون مصر وأحس المصريون بأن سيادتهم قد مست تقدم بعضهم لزعامة الرأى العام وألف محمد سلطان وأحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وسليمان أباظة وحسن الشريعى حزباً

---

(١) Georges Antonius : The Awakening of Modern Egypt.
لندن ، ١٩٤٧ ، ص ٧٩

(٢) K.T. Khairallah : Le Problème de Levant : Les Régions Arabes Libérées : Syrie, Irak, Liban, (Paris, 1919), p. 22.

أسموه « الحزب الوطنى » وأصدروا منشوراً فى ٤ من نوفمبر عام ١٨٧٩ تضمن برنامج ذلك الحزب أشار معظمه إلى كارثة الديون التى مكنت الأجانب من الاعتداء على سيادة مصر . وقد تطور برنامج هذا الحزب عندما تبين أعضاؤه أن الأيدى الأجنبية تعمل على أن تحكم مصر حكماً استبدادياً فأعلن على العالم برنامجه الشامل الذى تضمن :

١ — المحافظة على استقلال مصر ومقاومة من يحاول إخضاعها ويجعلها ولاية عثمانية .

٢ — الولاء للخديوى وتأييد سلطته ما دامت أحكامه جارية وفقاً للعدل والقانون والإلحاح عليه بتنفيذ ما وعد به من إعطاء الشعب حكماً نيابياً ، وإطلاق الحرية للمصريين .

٣ — إخضاع الأجانب لما يخضع له المصريون من قوانين البلاد ومساواتهم بالمصريين فى اقتضاء الضرائب منهم .

٤ — زيادة عدد الجيش للدفاع عن سيادة مصر إلى أن تبدأ الحياة النيابية باعتبار الجيش حارساً للشعب الذى لا سلاح له .

٥ — جميع المصريين سواء فى الحقوق مهما اختلفت عقائدهم الدينية .

٦ — إصلاح البلاد مادياً وأدبياً ونشر التعليم وتوفير الحرية السياسية لكافة المصريين وهى الحرية التى يعتبرها الحزب حياة للأمة[١] .

---

(١) Blunt, Secret History of the British Occupation ص٥٥٦
وقد نشر البرنامج بعدد جريدة « التيمس » التى صدرت فى أوائل يناير عام ١٨٨٢ .

وفى عام ١٨٩٥ بدأ مصطفى كامل دعوته لتأسيس الحزب الوطنى وإلى تحرير مصر من الاحتلال البريطانى وكان أول الزعماء العرب اهتماماً بإثارة المفكرين الأحرار فى الأوساط الدولية المهتمة بالشرق العربى ضد الاستعمار الأجنبي ، فبين عامى ١٨٩٥ — ١٩٠٦ تنقل بين فينا وباريس وبودابست وبرلين واستطاع أن ينشر دعوته الوطنية فى صحف هذه البلاد، وأن ينقل هذه الدعوة إلى الصحف الأمريكية ، وأن يتصل بالنواب الألمان والبلجيكيين والفرنسيين ،وأن ينشر بالفرنسية بيانات واضحة عن عدالة القضية المصرية ، وأن يدفع عدداً من أكثر الكتاب والكاتبات الأوربيين شهرة إلى تسخير أقلامهم لنصرة دعوته الوطنية ، وقد ختم هذا الجهاد العربى الوطنى الشاق بإصدار صحيفة مسائية يومية باللغة الفرنسية l'Etendard Egyptien صدرت فى ٣من مارس عام ١٩٠٧ وأخرى صباحية باللغة الإنجليزية The Egyptian Standard

وفى عام ١٨٩٥ أسست الهيئة الرسمية التى ضمت المنفيين العرب فى باريس باسم « رابطة الوطن العربى » .

وفى ديسمبر عام ١٩٠٤ وجهت نداء إلى العرب القاطنين فى أراضى الدولة العثمانية تستحثهم فيه على المطالبة بالتحرر من نير تلك الدولة ، وفى عام ١٩٠٥ وجهت هذا النداء إلى الضمير الإنسانى فى أوربا وأمريكا أبانت فيه مطالب العرب . وقد صار هذا النداء فيما بعد أساساً للمناهج الأخرى فيما تأسس من الجمعيات (١) .

(١) محمد بديع شريف — نفس المرجع — ص ١٩٦ .

وفى نفس العام تكررت حوادث التمرد المسلح فى الحجاز واليمن ، ورغم كل محاولات الحكومة التركية لم تستطع أن تخمد هذا التمرد بل إنه انتشر عاماً بعد عام مستنفداً من تركيا الكثير من القوات المسلحة والمال ومتسبباً فى كوارث تركيا بطرابلس (ليبيا)[١] .

وفى سبتمبر عام ١٩٠٨ أسس العرب المقيمون فى الآستانة جمعية أسموها « جمعية الإخاء العربى العثمانى » كل هدفها توحيد كلمة العرب التابعين للدولة العثمانية مع المحافظة على ولائهم للسلطان وحماية الدستور التركى الذى كان قد صدر مشبعاً بالمبادئ الحرة ، والعمل على ترقية الولايات العربية داخل الدولة العثمانية ، وقد أصدرت هذه الجمعية صحيفة تروج لمبادئها .

وكان أعضاء « جمعية الإخاء العربى العثمانى » يعتمدون على التعاون مع أعضاء « جمعية الاتحاد والترقى » التركية التى كانت تهدف إلى التخلص من طغيان حكومة السلطان عبد الحميد ، ولكن العرب تبينوا أن أعضاء الجمعية التركية مصممون على أن يكفلوا للعنصر التركى أغلبية فى الانتخابات البرلمانية رغم تفوق العرب على الترك فى العدد ، وقد نجح فى تلك الانتخابات فعلا مائة وخمسون نائباً تركياً ولم ينجح إلا ستون نائباً عربياً فى مجلس النواب ، أما مجلس الشيوخ فلم يعين السلطان فيه إلا ثلاثة من الشيوخ العرب ، وقد تطور الأمر بعد ذلك فحاول السلطان

---

(١) ستودارد ، نفس المرجع ، ص ١٥٥ .

البطش بجمعية الاتحاد والترقى. وحرض حامية الآستانة على مهاجمة دار « المبعوثان » وقتل وزير العدل ونائب عربى هو الأمير محمد أرسلان ، فلما سمع محمد شوكت باشا بذلك وهو عربى يتمتع برتبة عالية فى الجيش الذى كان مرابطاً فى سالونيك هاجم الآستانة واقتحمها وأعلن خلع السلطان عبد الحميد وتولية أخيه السلطان محمد رشاد فى آخر أبريل عام ١٩٠٩ .

وفى نفس العام ، ١٩٠٩ ، بعد أن تبين الضباط العرب فى الجيش التركى استحالة التعاون مع زملائهم الأتراك أعضاء جمعية الاتحاد والترقى أسس العرب « المنتدى الأدبى » وقد اشترك فى تأسيسه عدد من النواب والكتاب والطلبة العرب وألحقت به مكتبة ضمت عدداً كبيراً من الكتب العربية ، ودار للضيافة وقاعة للمحاضرات ، وقد ساهم هذا المنتدى فى إذكاء الوعى العربى واجتذب عدداً كبيراً من الأعضاء ونجحت فكرته فأنشأ له فروعاً عديدة كانت ملتقى الوافدين العرب من أنحاء الدولة العثمانية ، وقد تبينت هذه الدولة خطورته على كيانها فى الحرب العالمية الأولى .

وفى عام ١٩١٢ أسس فى القاهرة حزب « اللامركزية الإدارية العثمانى » وقد أسست له فروع فى سورية والعراق » وكان يهدف إلى إقناع الدولة العلية بضرورة حكم اللامركزية وتوجيه الرأى العربى إلى المطالبة بذلك وقد ظهر الحزب لأول مرة جريئاً ووقف وجهاً لوجه أمام الاتحاديين ، وقد جاء فى المادة الثالثة من مناهجه : « ليس هذا الحزب خفياً وليس

فيه ما يعد من الأسرار فهو ينشر مقصده المبنى على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من أحد لاعتقاده يقيناً أن الدولة لا تبقى فى العالم السياسى إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية» »[1] .

وفى عام ١٩١٣ أسست فى بيروت « الجمعية الإصلاحية » ولم تمانع السلطات التركية فى عقد جلسات هذه الجمعية بدار المجلس البلدى وقد تضمن برنامجها « أن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية فى جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية فى مجلس الأعيان » .

وأسست فى البصرة جمعية إصلاحية أخرى تتفق فى برنامجها مع باقى الجمعيات العربية .

وقد ثارت الحكومة التركية ، حكومة الاتحاد والترقى ، بسبب هذا الوعى العربى الذى انتشر فى كافة أنحاء الدولة العثمانية وأسرعت هذه الحكومة إلى البطش بهذه الجمعيات العربية ، فانتقل النشاط العربى العلنى إلى ميدان آخر هو ميدان النشاط السرى .

وأولى الجمعيات العربية السرية التى أسست هى « الجمعية القحطانية » وقد حلت بعد عام واحد من تأسيسها ؛ إذ خشى مؤسسوها أن يكون الواشون قد وشوا بها لدى السلطات التركية ، وقد وصف المؤرخون العرب المحدثون هذه الجمعية بأنها تمتاز بجرأة مؤسسيها وإقدامهم ووضوح منهاجهم بأن

---

(١) محمد بديع شريف ، ص ٢٠٠ .

تكون الدولة العلية ذات تاج مزدوج ، أى أن السلطان يضع على رأسه فى الآستانة تاج المملكة العربية إضافة إلى تاجه التركى ، وتتكون الدولة العربية من جميع المقاطعات العربية ولها مجلس نيابى خاص وإدارة محلية على غرار إمبراطورية النمسا والمجر ، ولقد أدرك رجال هذه الجمعية أن الدعوة علناً إلى تحقيق هذا المنهج أمر مستحيل ، لأن ذلك مما ترتعد له فرائص غلاة الترك ، فاتخذت السرية لها سبيلا ، ووضعت لأعضائها كلمة سر يتفاهمون بها كما أنها كانت تختار الأعضاء بدقة وحذر وكان زعيم هذه الجماعة الضابط المعروف عزيز على المصرى وكانت تسعى لكسب ضباط العرب فى الجيش التركى (١) .

ولما أوقفت « الجمعية القحطانية » نشاطها أسس عزيز على المصرى عام ١٩١٤ جمعية أخرى لها نفس الهدف أسماها « جمعية العهد » وكانت غالبية أعضائها من العرب العراقيين نظراً لكثرة عددهم فى الجيش التركى ، ولذلك أُسس لها فرعان : أحدهما فى بغداد والآخر فى الموصل وكانت جهود « الجمعية القحطانية » و « جمعية العهد » فى سبيل مذهب التحرر العربى ذات أثر إيجابى فعال أثمر ثمرته عندما توحدت جهود أعضائهما فى دمشق عام ١٩١٥ مع جهود أعضاء « الجمعية العربية الفتاة » .

وقد أسست « الجمعية العربية الفتاة » فى باريس عام ١٩١٢ من سبعة طلاب عرب كان من بينهم جميل مردم رئيس الوزارة السورية فيما بعد ،

---

(١) محمد بديع شريف ، ص ٢٠٢ .

وعونى عبد الهادى رئيس الوزارة الأردنية الهاشمية فيما بعد ومحمد رستم حيدر (لبنانى) ووزير مالية العراق فيما بعد، ومحمد المحمصانى (لبنانى) وأحمد قدرى (سورى) وتوفيق الناطور (لبنانى) ورفيق التميمى (فلسطينى) وكان هدف هذه الجمعية تحرير العرب من الحكم التركى أو من أى حكم أجنبى ، وقد استفاد أعضاء هذه الجمعية من التجارب التى مرت بها الجمعيات العربية السابقة ، ولذلك عنى أعضاؤها بالتزام السرية المطلقة فى أعمالها وبالحرص على ألا يضموا إليهم أحداً إلا بعد امتحان إيمانه بمبادئ الجمعية امتحاناً دقيقاً .

وعقدت الجمعية عام ١٩١٣ فى باريس مؤتمراً استمر ستة أيام من ١٨ إلى ٢٤ من يونيو حضره أربعة وعشرون مندوباً يمثلون البلاد العربية منهم أحد عشر مسيحيًّا ، وكان من بين ممثلى العراق توفيق السويدى الذى أصبح رئيساً للوزارة العراقية فيما بعد . وقد أبدى المؤتمر رغبته فى أن تظل البلاد العربية فى نطاق الدولة العثمانية بشرط أن تنال البلاد العربية حقها فى الحكم الذاتى ، وشدد المؤتمرون على أهمية منع الدول الأوربية من التدخل فى هذه المسألة ، وعلى أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وعلى إنشاء إدارة لامركزية فى كل ولاية عربية ، وعلى عد هذه القرارات برنامجاً سياسيًّا للعرب .

وفى نفس العام نقل مركز الجمعية إلى سورية ووصل عدد أعضائها إلى ألفين من بينهم شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية فيما بعد وتوفيق البساط (أعدم) والملك فيصل الأول الذى انضم إلى الجمعية عام

١٩١٧ ويس الهاشمى (عراقى) ثم انضم إليها عام ١٩١٨ رضا الركابى وإبراهيم هنانو (سوريان) ورياض الصلح ورضا الصلح (لبنانيان) .

وأسست فى العراق جمعية وطنية اتخذت بغداد مقراً لها ، كان هدفها طرد الأتراك وإنشاء حكومة مستقلة ، وقد ضمت هذه الجمعية أكثر من مائة من ضباط الجيش وعدداً كبيراً من الأعيان العراقيين كان من بينهم حمدى الباجهجى رئيس الوزارة العراقية فيما بعد .

وفى مارس عام ١٩١٣ عقد العرب فى العراق الأسفل وفى الأراضى المجاورة له مؤتمراً فى المحمرة لتنظيم العمل على استقلال العراق والأراضى العربية الخاضعة للحكم التركى .

وفى نوفمبر من ذلك العام اتصل زعماء هذه الحركة العربية العراقية بالأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن السعودى الذى كان قد بسط سيادته على نجد فأبدى عطفه على هذه الحركة وتأييده لها ، ولكنه أوضح خشيته من خصمه التقليدى الذى كان موالياً للحكومة ، التركية أمير جبل شمر .

وقد تبينت الحكومة التركية خطورة هذا الوعى العربى فحاولت أن تفت فى عضد زعمائه من السوريين والعراقيين بإغرائهم بقبول وظائف سياسية هامة ، وبرغم ضعف بعض أولئك الزعماء أمام ذلك الإغراء ، فإن الأمناء على الحركة العربية ظلوا يتابعون جهودهم الموفقة ، وكان أعضاء « جمعية العهد » قد زاد عددهم حتى قيل إن هذا العدد قد وصل إلى أربعة آلاف . وكانت هذه الجمعية بالنسبة للضباط العرب

ما أصبحت عليه « الجمعية العربية الفتاة » — وقد اندمجا فيما بعد — بالنسبة للمدنيين من الطبقة المثقفة ، ولو أن أعضاء الجمعيتين لم يكونوا قد اتصلوا بعضهم ببعض إلا بعد ذلك عندما تم الاندماج فى مستهل عام ١٩١٥.

وفى يناير عام ١٩١٤ قبضت الحكومة التركية على عزيز على المصرى فى الآستانة واتهمته بأنه حاول إنشاء دولة عربية فى شمالى إفريقيا وبأن الإيطاليين رشوه أثناء الحرب الطرابلسية عام ١٩١١ وحكم عليه بالإعدام، ولكنه أفرج عنه .

ومنذ فبراير عام ١٩١٤ كان كتشنر وسكرتيره الشرقى رونالد ستورز قد تبادلا مراسلات مع الشريف حسين حاكم مكة الذى كان قد بدأ سخطه على نظام المركزية فى الحكومة العثمانية وعلى تبعيته للوالى التركى الذى كانت تعينه حكومة الآستانة .

وكان المفاوضون البريطانيون حذرين أثناء المفاوضات طالما كانت تركيا متخذة موقف الحياد، إلا أنهم فى أكتوبر عام ١٩١٤ أقروا فكرة تحرير العرب كما أقروا فكرة « الأمة العربية » فى مقابل مساعدة العرب لهم ضد تركيا ، وفى نفس الوقت اتصل ستورز وجلبرت — كليتون — من المخابرات البريطانية — بعزيز المصرى وبآخرين لدراسة احتمالات القيام بثورة عربية ، ولكن هؤلاء الوطنيين صمموا كشرط أول رئيسى على الحصول على ضمانات بشأن استقلال الأقطار العربية وهو أمر لم يكن المفاوضون البريطانيون يملكون سلطة البت فيه .

وفى يناير حمل عضو من أسرة البكرى فى دمشق كانت قد كلفته السلطات الرسمية التركية بمهمة فى مكة، رسالة من «الجمعية العربية الفتاة» إلى الشريف حسين تطلب منه التعاون معها فى القيام بثورة عربية. وبناء على ذلك أرسل الشريف ابنه فيصلا إلى الآستانة متظاهراً بمهمة رسمية ، ولكنه كان فى الحقيقة موفداً لدراسة مدى استعداد السلطات التركية والوطنيين السوريين ، وقد زار فيصل أثناء رحلته أسرة البكرى فى دمشق وقابل أعضاء من جمعيتى « العربية الفتاة » و « العهد » وصارحهم بمحادثات أبيه مع البريطانيين وعند عودته إلى دمشق فى مايو من ذلك العام تبين أن تينك الجمعيتين السريتين قد أعدتا ميثاقاً مشتركاً يشترط للقيام بثورة عربية ضد الحكومة التركية أن تعترف بريطانيا باستقلال الدولة العربية التى تضم شبه الجزيرة — ماعدا عدن — كما تضم فلسطين وسورية والعراق ، وفى يوليو — بعد أن أعلنت بريطانيا عزمها على الاعتراف باستقلال الدولة العربية فى شبه الجزيرة — أرسل الشريف حسين إلى سير هنرى ما كماهون — المندوب السامى البريطانى فى مصر — مذكرة كرر فيها ماتضمنه ميثاق دمشق الذى حمله معه الأمير فيصل، وكان المكتب العربى الذى أنشأه البريطانيون فى القاهرة حتى ذلك الوقت لا يكاد يعلم شيئاً عن وجود تينك الجمعيتين العربيتين السريتين اللتين أعدتا ذلك الميثاق ، ولذلك خيل إلى البريطانيين أن طلبات الشريف حسين الخاصة بإنشاء دولة عربية كبرى كانت من وحى أطماعه الشخصية بينما الحقيقة أن تلك الطلبات إنما كانت تمثل وجهات نظر الحركة الوطنية العربية ،

باستثناء الوطنيين السوريين الذين لم يكونوا مجمعين على عد حسين ملكاً للعالم العربى.

وفى نفس الوقت اشتدت سياسة جمال باشا الحاكم التركى والقائد العام فى ظل الحكم العرفى بسورية ضد العرب بعد خيبة الهجوم التركى الألمانى الأول على قناة السويس فى فبراير عام ١٩١٥ ، وكان قد استطاع أن يعثر على وثائق قنصلية فرنسية استدل منها على تآمر شخصيات سورية وفلسطينية عديدة على حكومته التركية وهى الوثائق التى لم يستطع « بيكو » القنصل الفرنسى العام أن يتلفها بل تركها فى عهدة القنصل الأمريكى فوقعت فى أيدى الأتراك ، وقد أجرى جمال باشا خلال عام ١٩١٥ ومستهل عام ١٩١٦ عدة محاكمات ضد أربعة وثلاثين من الوطنيين العرب مسيحين ومسلمين قضى عليهم بالإعدام .

وشهد الشرق العربى عقب الحرب العالمية الأولى يقظة عامة تبين زعماؤها أن العبارات الشاعرية التى رددها الحلفاء أثناء الحرب تمخضت عن روح استعمارية آثمة لاتتفق إطلاقاً مع ما استقر عليه الوعى العربى من عزم على التحرر والتكتل ، ولقد حاول أحد كبار المؤرخين البريطانيين ، بعد أن اعترف بأن الوطنيين فى الشرق العربى قد استطاعوا عقب عام ١٩١٨ أن ينالوا امتيازات عظيمة بواسطة الضغط والعنف أكثر مما كان يحتمل أن ينالوه بواسطة المناقشات التى تستند إلى العقل والحكمة — حاول أن يقرر أن الرأى العام البريطانى كان قد ظهرت عليه أعراض تقر مطالب أولئك الوطنيين ثم انتهى إلى أن أولئك الوطنيين يعزون نجاحهم

إلى استعمال العنف وحده وأن ذلك النجاح شجعهم على المضى فيه(١).

ولقد أجمع المؤرخون الأجانب الذين توفروا على دراسة هذه الفترة من تاريخ الشرق العربى على أن حركة السخط العربى فى النصف الأول من القرن العشرين نظمت فى بادئ الأمر بالقاهرة حيث كان يتجمع عدد من السوريين ، وفى القاهرة نظم نجيب عزورى هيئة سرية تستهدف نفس الغرض الذى ترمى إليه حركة التحرير الإيطالية المعروفة باسم « كاربونارى » وانتشرت هذه الحركة من القاهرة إلى باقى الأقطار العربية(٢) ، وأصبحت القاهرة — ملجأ الوطنيين العرب ومقر الأزهر — تسمى « مركز العروبة الرئيسى فى العالم الإسلامى »(٣) .

وهذه الهيئات العربية « الدولية » — فى نطاق الأقطار العربية المختلفة — إذا استخدمنا تعبير العلامة « سيل » تتكون دائماً من مواطنى بلاد مختلفة وتسمى « هيئات خارج نطاق هذه الدول Extra-étatique لأنها لتحقيق أغراضها لا تلجأ إلى الحكومات التى تنتمى إليها. والواقع أن التضامن بين

---

(١) A.J. Toynbee: The Islamic World since the Peace Conference

(٢) Kohn, A History of Nationalism, in the East

نيويورك ، ١٩٢٩ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٥

(٣) L. Massignon, Elements Arabes et Foyers d'Arabisation, leur rôle dans le monde Musulman actuel, Revue du Monde Mushuman. باريس ، ١٩٢٩ .

المنتمين إلى هذه الهيئات يتجه إلى التحرر من ضغط هذه الحكومات ونبذ تدخلها ، ومن خصائص هذه الهيئات العربية التى كانت تدعو إلى التحرر العربى والوحدة العربية أن أعضاءها كانوا يتحررون من صلة التبعية للدولة العثمانية ؛ وهذا الطراز من الهيئات لا تديره الدول التى ينتمى إليها أعضاؤه بحكم « الجنسية » النظرية ، كما أن من خصائص هذه الهيئات أنها تصنع لنفسها النظم الخاصة بها والهيئات التى تحكمها وتوجهها(١) ، وقد ضرب « سيل » على ذلك مثلا — من الوجهة النظرية — ببعض الهيئات الدينية الدولية وباتحادات العمال الدولية (أنترناسيونال) وعاد فشرح هذه الهيئات « الدولية » المكونة من أفراد ينتمون أصلا إلى « جماعات دولية » Société étatiques. وأشار إلى خصائصها المميزة وأولها التضامن الذى يربط بينها فهو تضامن قائم على التوافق والتشابه ، وهذا التضامن قد تتعدد صوره وأشكاله ، فقد يكون روحياً أو علمياً أو وطنياً أو إنسانياً ، وثانى هذه الخصائص المميزة أن أعضاء هذه الهيئات يتجاهلون صلتهم بالدول التى يتبعونها أصلا وبالجنسية التى ينتمون إليها وهى « الجنسية » التى لا تكترث بالغايات التى يرمون إليها . ولذلك فإن هذه الهيئات تدار بالتعاون مع الحكومات أو ممثلى الدول التى ينتمى إليها أعضاؤها وإنما تديرها هيئات تجد أصلها ورئاستها فى الجماعة التى خارج نطاق الدولة .

---

(١) Georges Scelle, Précis de Droit des Gens. باريس ، ١٩٣٢ ، ص ٥٨ .

وهذه الجماعة تتولى تنظيم نفسها بنفسها وتستكمل استقلالها ذاتياً لأن قانونها والأوضاع الاجتماعية التى تخلقها مستقلة عن النظم القانونية « الدولية » فقانون الجماعة التى تعمل خارج الدولة ينشأ فى نطاق أهملته الدولة أو حقل نشاط فرض عليها قسراً[١].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

الفصل الرابع

العلاقات الدولية والمعاهدات المتسمة بطابع العروبة

لم تتورع الدول الاستعمارية الأوروبية فى أثناء الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها عن تمزيق الأقطار العربية الآسيوية واقتسامها طبقاً للاتفاق السرى المعروف باسم اتفاق « سايكس — بيكو » فى مارس ١٩١٥ وطبقاً لمعاهدة لوزان التى فرضت الانتداب على لبنان وسوريا والأردن والعراق وفلسطين فى ٢٤ من يوليو عام ١٩٢٣.

ولا يتسع المقام هنا للإسهاب فى شرح تطور فكرة العروبة فى تلك الفترة ولكنا نقتصر على أن نشير إلى أن الأقطار العربية التى كانت خاضعة للسيادة التركية بدأت تسترد سيادتها مقيدة فى بادئ الأمر ثم تجمعت هذه الأقطار العربية وأنشأت بينها علاقات دولية متسمة بطابع العروبة وأخذت تنتزع استقلالها تدريجياً بعد أن نضجت فكرة العروبة واستقرت.

فى ٣٠ من أبريل عام ١٩٢٥ عقدت إمارة العسير معاهدة مع بريطانيا اعترفت فيها للأمير الإدريسى بشبه استقلال لهذه الإمارة العربية.

وفى ٢٦ من ديسمبر عام ١٩١٥ عقدت إمارة نجد معاهدة العقير مع بريطانيا اعترفت فيها للأمير عبد العزيز بن سعود بسيادة مقيدة لهذه الإمارة.

واندلعت ثورة مصر فى عام ١٩١٩ ، وهى الثورة التى وصفها أحد الكتاب الإيطاليين بأنها للمرة الأولى فى التاريخ خفقت الأعلام التى تحمل الهلال والصليب متحدين . . . واليوم . . . كما حدث تماماً فى الهند عند المسلمين والهندوس اختفى كل أثر للخلاف الدينى ، انطوى كل المصريين تحت علم واحد ، وقد قررت كاتبة فرنسية قضت حياتها كلها فى مصر « رأينا فى بلد طالما فرقت الخلافات الدينية والسياسية بين عناصره ومزقتها ، هذا الأمر العجيب : القسس الأقباط يعظون فى المساجد والعلماء المسلمون يخطبون فى الكنائس ، طلبة سوريون مارونيون ومسلمون وطلبة ينتمون إلى جميع المذاهب ونساء مصريات من أصل تركى أو مصريات صميمات يتحدون جميعاً فى الاشتعال بحمى الرغبة القوية ، الرغبة فى إشراق فجر الاستقلال على الأرض القديمة » (١) .

وفى ٢ من نوفمبر ١٩٢١ ضم عبد العزيز إمارة حايل إلى نجد واعترفت بريطانيا به سلطاناً على هذه الدولة العربية .

وفى ٢٨ من فبراير ١٩٢٢ أعلنت بريطانيا تصريحها بإنهاء الحماية على مصر وباستقلالها استقلالا مقيداً بالتحفظات الأربعة المعروفة .

وفى ٢٥ من مايو ١٩٢٣ أعلن استقلال شرق الأردن استقلالا مشوباً بقيود عديدة فرضتها بريطانيا .

---

(١) ستودارد ، نفس المرجع ، ص ٩٢ – ٩٣ ، وقد استند على Civimani فى Corriera della Sera ، ٣٠ ديسمبر ١٩١٩ ومدام Jehan D'Ivray Revue de Paris ١٥ سبتمبر ١٩٢٠ .

وفى ١٠ من أكتوبر ١٩٢٢ عقدت معاهدة تحالف بين العراق وبريطانيا اعترف فيها باستقلال مقيد للعراق وتعهد بمساعدته على الانضمام إلى عصبة الأمم .

وفى ٥ من يونيو ١٩٢٥ وقعت معاهدة بين الحجاز — التى كان يمثلها الملك على بن الحسين — والأردن التى كان يمثلها أخوه الأمير عبد الله بشأن ضم العقبة ومعان إلى الأردن ، وقد تضمنت هذه المعاهدة إشارة عامة إلى إنقاذ الشرق العربى ؛ فكانت أول معاهدة اتسمت بطابع العروبة ، وقد تبينت الدول العربية من جانبها ما يجمع بينها من روابط ؛ وما يدعو إلى التفاهم من أسباب ؛ فاتسمت الاتفاقات التى عقدت بينها بطابع الأخوة وفى هذا النطاق أصبحت هذه الدول تدريجيا حرة ومتجة فى ارتباطاتها السياسية بعيدة المدى (١) .

وفى أكتوبر ١٩٢٥ نشبت ثورة جبل الدروز ضد سلطات الانتداب الفرنسية .

وفى ٨ من يناير ١٩٢٦ نودى بعبد العزيز بن سعود ملكاً للحجاز وسلطاناً لنجد وملحقاتها .

وفى أبريل ١٩٢٦ انتشرت الثورة فى جميع أنحاء سوريا .

وفى ٢٣ من مايو ١٩٢٦ أعلن دستور الجمهورية اللبنانية ونص فيه

---

(١) ألبيرنصيف Traités et Accords de Fraternité entre les Pays Arabes المجلة المصرية للقانون الدولى ، ١٩٤٩ ، ص ٤٩ .

على أن العربية هى لغتها الرسمية ولكن ظلت سلطات الانتداب الفرنسية قائمة .

وفى ٢١ من أكتوبر ١٩٢٦ وقعت بين الحجاز — نجد، يمثلهما عبد العزيز بن سعود وإمارة العسير يمثلها حسن بن الإدريسى المعاهدة العربية الثانية التى اتسمت بطابع العروبة فقد أشير فيها إلى وحدة البلاد العربية والدفاع عن كيانها وإلى تقوية العلاقات بين إمارات شبه الجزيرة العربية .

وفى ١٤ من مايو ١٩٣٠ أعلن الدستور السورى الذى نص على استقلال سوريا وعلى أن العربية هى لغتها الرسمية ولكن ظل الانتداب الفرنسى قائماً .

وفى ٣٠ من يونيو ١٩٣٠ عقدت معاهدة بين بريطانيا والعراق اعترف فيها بسيادة مقيدة للعراق.

وفى ٧ من أبريل ١٩٣١ عقدت المعاهدة الثالثة المتسمة بنفس الطابع بين الحجاز — نجد والعراق ونص فيها على أنها مبنية على رغبة عاهلى الدولتين فى بذل كل جهدهما فى توحيد الأمة العربية والتوفيق بين شعوبها .

وكان قد اجتمع فى ٣ من أغسطس ١٩٣١ بنابلس مؤتمر عربى لمكافحة تسليح اليهود فى فلسطين .

وفى ١٣ من ديسمبر عام ١٩٣١ اجتمع المؤتمر العربى القومى فى القدس وضم ممثلين لمختلف الجمعيات والأقطار العربية وأصدر الميثاق الآتى :

١ — إن البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة لا نقره ولا نعترف به .

٢ — توجه الجهود فى كل قطر من الأقطار العربية . . . وجهة واحدة هى استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة كل فكرة ترمى إلى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والإقليمية (١) .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن المؤتمرات العربية السابقة التى عقدت من أجل فلسطين كان مقرها القاهرة ومكة حيث اشترك فيها مندوبون عن الدول العربية والإسلامية .

وقد عقب أحد المؤرخين الأوربيين على هذه القرارات بأن الشعور بالوحدة العرقية بين أجزاء العالم العربى قد اتجه إلى النمو كما تمثل فى الميثاق الذى أعده المندوبون العرب فى هذا المؤتمر ، إذ أعلن فيه أن الأراضى العربية كل لا يتجزأ وأن استقلال هذه الأراضى ووحدتها هو الهدف الذى توجه إليه كل جهود العرب وأن التضامن العربى قد برز بشكل أوضح فى الاهتمام الإيجابى وجهود الوساطة التى بذلت (٢) .

وفى ٢٠ من مايو ١٩٣٤ وقعت المعاهدة الرابعة من نفس الطراز

---

(١) محمد عزة دروزة ، « الوحدة العربية » ، ١٩٥٧ ، ص ١٢٣ ، وقد ذكر فى ص ١٢٥ أن اللجنة التنفيذية كانت مكونة من عونى عبد الهادى وخير الدين الزركلى وصبحى الخضرا وعجاج نويهض وعزة دروزة .

(٢) G.M. Gathorne-Hardy, A Short History of International Affairs. لندن ، ١٩٣٨ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

وهى معاهدة الطائف بين العربية السعودية – التى كان قد أعلن إنشاؤها فى ١٨ من سبتمبر ١٩٣٢ – واليمن، وقد أشير فيها إلى توحيد الأمة العربية الإسلامية ، والمحافظة على سلامة الجزيرة العربية والأخوة العربية الإسلامية الخالدة ، والأصل « العربى » ويمكن اعتبار معاهدة الطائف أول خطوة فى سبيل التعاون الحقيقى بين دولتين عربيتين مستقلتين ، فهى إقرار صريح برابطة الإخاء والجنس العربى المشتركة بين الدولتين (١) .

وفى ٢ من أبريل ١٩٣٦ وقعت فى بغداد المعاهدة الخامسة التى تتسم بطابع العروبة بين العربية السعودية والعراق ونصى فيها على روابط الدين الإسلامى، ووحدة الجنس، والأخوة الإسلامية، والوحدة العربية، وتوحيد الثقافة الإسلامية والعربية ، وقد وصفها بعض الشراح بأنها : « معاهدة أخاء عربى وتحالف قائمة على روابط الدين الإسلامى والوحدة القومية . . . بحيث يمكن اعتبار هذه المعاهدة هدفاً اجتمعت فيه مختلف النزعات التى ترمى إلى تقارب الدولتين العربيتين ، واستهدفت الاتفاقية المذكورة فى نفس الوقت إلى أن تكون محوراً تلتف حوله باقى الدول العربية المستقلة» (٢) .

فى ١٠ من يناير ١٩٣٦ اجتمع مؤتمر دمشق الذى طالب فيه الوطنيون السوريون بالوحدة العربية، ثم نشبت الثورة فى سوريا من جديد .

---

(١) ألبير نصيف ، نفس المرجع ، النص العربى ، ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ، النص العربى ، ص ١٨ .

وفى ٦ من مايو ١٩٣٦ وقعت معاهدة صداقة بين مصر والعربية السعودية وأشير فيها إلى التضامن والتعاون الإسلاميين بين الدولتين .

وفى ٢٦ من أغسطس ١٩٣٦ وقعت معاهدة سميت معاهدة صداقة وتحالف بين مصر وبريطانيا رفعت بمقتضاها بعض القيود التى كان قد فرضها تصريح ٢٨ من فبراير ١٩٢٢ وألغيت بمقتضاها الامتيازات الأجنبية ، باتفاقية مونترو فى ٨ من مايو ١٩٣٧ وقد عقب أحد المؤرخين الأوربيين على هذه الفترة اللاحقة لإنشاء مصر علاقات صداقة بالدول العربية الإسلامية بأن الأصوات ارتفعت منادية بتوثيق عرى اللغة والثقافة والدين ، وأن المظاهرات التى خرجت فى مصر تؤيد شعوب المغرب وفلسطين وسوريا ، اتخذت طابعاً مزدوجاً دالا على الأخوة الدينية والعرقية ، وأنه بالنسبة لمصر اتجه الوطنيون — أثناء اضطرابهم — فى سوريا والعراق نحو القاهرة صائحين ، تقدمى يا مصر إننا نتبعك ، والقاهرة لم تصم أذنيها عن هذا النداء بل صممت على أن تسلك طريق العروبة ، فمنذ ذلك الوقت أصبحت القاهرة والإسكندرية مقراً لعدد من المؤتمرات التى أكدت إيمانها فى المصائر الرائعة للشعب العربى ، ومن جهة أخرى فإن أفق العروبة الذى كان مقصوراً على الدول التى نشأت فى أقطار الإمبراطورية العثمانية القديمة قد امتد إلى برزخ وقناة السويس ثم عبر ليبيا وشمال إفريقيا إلى مياه الأطلنطى [١] .

---

(١) Marcel Colombe, L'Evolution de l'Egypte (1924-1950)
باريس، ١٩٥١ ، ١٧٥ — ١٧٨ .

وحلل آخر تزايد الإحساس بالتكتل العربى بصفة عامة فى الفترة بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٣٨ فقرر أن مما له أهمية كبيرة نمو شعور التضامن والعزم على استكمال الاستقلال الذى عم العالم العربى (١) .

وفى ١٩ من أبريل سنة ١٩٣٧ انضمت اليمن إلى معاهدة الصداقة والتحالف التى عقدت بين العربية السعودية والعراق فى ٢ من أبريل سنة ١٩٣٦ .

وفى نفس اليوم نشرت إحدى الصحف العراقية مقالا ذكرت فيه بعنوان « دور مصر فى النهضة القومية العربية » :

«لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى إنهاض القومية العربية لأنها تقع فى مركز البلاد العربية بين القسمين الإفريقى والآسيوى منها . كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم إليها العالم العربى بحكم السياسية والظروف . . . وكل ذلك من الموقع الجغرافى إلى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة، وتشكيلات الدولة وانتشار الأدب والفصاحة مما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقومية العربية»، وقد لاحظ هذا المفكر بعد تحليل أهداف الرابطة الشرقية — التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول من هذا القسم — أنه « لا نكران فى أن بعض مفكرى مصر لم يصلوا بعد إلى مرحلة رابطة القومية العربية بل توقفوا عند نوع من الرابطة تؤلف جسر انتقال من مرحلة الرابطة

---

(١) جانورن — هاردى ، نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .

الإسلامية العامة إلى مرحلة الرابطة العربية القومية ، هذه الرابطة سموها باسم الرابطة الشرقية ، غير أننا لا نشك فى أن فكرة هذه الرابطة ، عندما تتحرر من عناصرها اللفظية وتصطدم بالحقائق العملية وتنصهر بالتعارف الحقيقى ، ستتحول بالتدريج إلى رابطة عربية بحتة»[1] .

وفى ٢٣ من أبريل ١٩٣٧ عقدت بين سوريا والعراق معاهدة حسن جوار .

ونما التعاون بين مختلف الشعوب العربية . فعقد فى ١٢ من سبتمبر عام١٩٣٧ بيلودان بسورية مؤتمر أعلن فيه أن فلسطين جزء لا ينفصل من الأرض العربية وطالب بوقف هجرة اليهود إليها وحضره مندوبون عن مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين .

وفى ٢٦ من سبتمبر ١٩٣٧ اندلعت ثورة جديدة فى فلسطين ضد سلطات الانتداب البريطانية والصهيونيين وانتشر الإضراب العام .

وفى ١١ من أكتوبر عام ١٩٣٨ ، وكان وعى التكتل قد تبلور ، عقد فى القاهرة مؤتمر برلمانى للدفاع عن فلسطين ضم ممثلين للهيئات النيابية العربية.

وفى المدة من ٧ فبراير إلى ١٧ مارس عام ١٩٣٩ عقد فى لندن مؤتمر لبحث قضية فلسطين حضره ممثلون لمختلف الأقطار العربية .

وقد تأكدت مساهمة المصريين فى إرساء صرح العروبة فقرر أحد

---

(١) « البلاد » بغداد ، فى ١٩ من أبريل ١٩٣٦ .

المفكرين الفلسطينيين « أن الحقائق تثبت لنا أن أهل وادى النيل شعب عربى والقول بخلاف ذلك فرار من الحقيقة الواقعة التى لا يمكن تغييرها، كما لا يمكن تغيير مجرى النيل بجعله يجرى من الشمال إلى الجنوب بدلا من جريه من الجنوب إلى الشمال » (١) .

وفى مستهل نفس العام ، أى عام ١٩٣٩ ، تألفت جمعية ضمت بعض الشبان العراقيين والمصريين والسوريين والفلسطينيين للدعاية للوحدة العربية (٢) وقد لاحظ الدارسون لتاريخ هذه الوحدة أن هذه الجمعية قد اضطلعت بمهمة إنشاء مراكز ثقافية لتبادل الآراء فى المسائل العامة وفى العادات المحلية لبعض المناطق العربية التى قد لا تعرفها المناطق المجاورة معرفة كافية ، وأسندت رئاسة الشرف إلى أحد كبار السياسيين المصريين (٣).

وفى ٢٥ من مايو عام ١٩٤٢ أسست فى القاهرة جمعية « الاتحاد العربى » وقد نصت المادة الأولى من قانونها على أن أغراض الجمعية ومبادئها « تنمية العلاقات وتقوية الروابط بين الأقطار العربية والسهر على مصالحها والدفاع عن حقوقها وهى : مصر والسودان والعراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والمملكة العربية السعودية واليمن وسائر بلاد جزيرة العرب وليبيا وتونس والجزائر ومراكش وسائر البلاد التى لغتها العربية ».

---

(١) يوسف هيكل « نحو الوحدة العربية » ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) « البلاد » ، ٢٤ من أبريل ١٩٣٩ .

(٣) ألبير نصيف ، نفس المرجع ، ص ٥٨ .

وهكذا كانت هذه الجمعية أول هيئة عربية استهدفت مصلحة الدول العربية المستقلة والأقطار العربية غير كاملة السيادة فى شمال إفريقيا .

ونصت المادة الثانية من قانون هذه الجمعية على « إنشاء اتحادات فى البلدان المذكورة تعمل على تحقيق أغراضه ونشر مبادئه بجميع الوسائل المشروعة » ونصت المادة على أن « يسرى قانون الاتحاد على جميع الاتحادات » .

وقد ألفت فعلا جمعيات مماثلة تحمل نفس الاسم فى بغداد ودمشق وبيروت .

وقد حرص مؤسسو الاتحاد العربى على أن يبرزوا للعرب أن « وحدة اللغة هى الأساس الذى اتجهت إليه الفكرة فى مظهرها الحالى ، ولذلك وجهنا الدعوة إلى الاتحاد بين الشعوب التى تتكلم العربية من مسلمين ومسيحيين ، ودفعتنا وحدة اللغة التى اخترناها أساساً للرابطة إلى ألا يكون فيها إخواننا من أبناء البلاد الشرقية والإسلامية الصديقة التى تتكلم بغير العربية ، وتبع لذلك إنحاء فكرة البحث فى الخلافة الإسلامية جانباً ، إذ لا تستطيع إحدى الأمم العربية فى الظروف الحاضرة أن تحمل أعباءها الثقال وتنهض بمسئولياتها الخطيرة وتدفع ثمنها الفادح ، وهكذا خلصت لنا فكرة الاتحاد العربى واضحة محدودة محررة مما أحاط بها من غموض ... فالاتحاد العربى ، فى مظهره الجديد ، لا يبغى جمع البلدان العربية تحت حكم سياسى واحد ، ولا يفرض عليها جميعاً نظاماً واحداً فى الحياة ، وإنما تبقى كل أمة من أممه مستقلة قائمة بذاتها تختار لنفسها ما يوافقها من نظم الحكم وصور الحياة ، ثم يضمها جميعاً هذا الاتحاد الذى ندعو

إليه ونريد أن يكون مجموعة شعبية دولية يحسب لها حسابها فيما يمس هذه الشعوب ، وليكون الاتحاد العربى قوة تستند عليه الحكومات فى مباحثاتها حول الغاية المنشودة»(١) .

وفى ٧ من أكتوبر عام ١٩٤٤ نشر بيان بقرارات اللجنة التحضيرية لجامعة الدول العربية جاء فى صدره « انتهت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام من أعمالها كما بدأتها فى جو رائع من الثقة المتبادلة والأخوة الصادقة والود الصميم والشعور بالمسئولية المشتركة فى هذه الظروف الخطيرة التى يتحول فيها مجرى التاريخ تحدوها الرغبة الملحة فى جمع شملها وتوحيد جهودها بتوجيهها إلى ما فيه خير البلاد قاطبة وصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها ، وقد كان من أعظم دواعى الغبطة والسرور أن ينضم إلى اللجنة حضرة الأستاذ موسى العلمى العضو الممثل لعرب فلسطين لما لقضية هذا القطر العربى الشقيق من الخطورة البالغة والأهمية الكبرى عند العرب أجمعين » .

ونص البروتوكول على أنه « إثباتاً للصلات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين البلاد العربية جمعاء ، وحرصاً على توطيد هذه الروابط وتدعيمها وتوجيهها إلى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة وصلاح أحوالها وتأمين مستقبلهاوتحقيق أمانيها وآمالها ، واستجابة للرأى العربى العام فى جميع الأقطار العربية ، قد اجتمعوا فى الإسكندرية فى هيئة لجنة

---

(١) فؤاد أباظة : «الكتاب الثانى للاتحاد العربى فى القاهرة» ص ٧ — ٩ .

تحضيرية للمؤتمر العربي العام وتم الاتفاق بينهم على ما يأتي :

أولا : جامعة الدول العربية :

تؤلف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة التي تقبل الانضمام إليها ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى ,, مجلس جامعة الدول العربية ،، تمثل فيه الدول المشتركة في الجامعة على قدم المساواة، وتكون مهمته مراعاة تنفيذ ما تبرمه هذه الدول من الاتفاقات، وعقد اجتماعات دورية لتوثيق الصلات بينها ، وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون فيها وصيانة لاستقلالها وسيادتها من كل اعتداء بالوسائل الممكنة وللنظر بصفة عامة في شئون البلاد العربية ومصالحها » .

ونصت الفقرة ثانياً من هذا البروتوكول بشأن التعاون في الشئون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية على ما يأتي :

- الشئون الاقتصادية والمالية بما في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملة وأمور الزراعة والصناعة .
- شئون المواصلات بما في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد .
- شئون الثقافة .
- شئون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين وما إلى ذلك .
- الشئون الاجتماعية .
- الشئون الصحية .

وقد أثار توقيع هذا البروتوكول والاتصالات التى سبقته اهتمام المفكرين العرب الذين توفروا على دراسة الوحدة العربية ، فذهب رأى إلى أن « الرأى العملى الذى ينسجم مع منطق التاريخ هو إنشاء اتحاد يجمع بين الأقطار العربية ، وهذا الرأى لا تدعو إليه رغبة فى أن يكون لمصر مركز ممتاز فى هذا الاتحاد ؛ فإن جميع أعضائه : فلسطين وسورية ولبنان والحجاز واليمن والسودان — سيكون لكل عضو من هؤلاء الأعضاء ما لمصر من الحقوق ، على أن يحتفظ كل عضو ببرلمانه يسن له التشريع الملائم له ، ولكل عضو ميزانيته الخاصة ، ولكل عضو حكومته المحلية الخاصة ، إلا أن البرلمان الاتحادى فى القاهرة يتكون من نواب وشيوخ يمثلون كافة أعضاء الاتحاد . كل بحسب عدد سكانه ، كما أن التمثيل السياسى والقنصلى للاتحاد فى الخارج سيكون موحداً ، وجيشه موحداً ، وجنسية مواطنيه واحدة .. . إن إعادة إنشا دولة واحدة من أقطار الشرق الأدنى فى شكل اتحاد مركزى يتفق مع الاتجاه الدولى الجديد الذى نشأ بسبب الحرب الأخيرة من جمع الشعوب التى تربطها بعضها بالبعض الآخر روابط اللغة والجنس فى وحدات إقليمية ، وفى يقينى أن مفكرى هذه الأقطار الشقيقة إذا آمنوا بهذه الفكرة ، كما أومن ، فإن كل عقبة تبدو الآن كأداء فى وجه هذه الدولة المنشودة ستتلاشى لأن أية عقبة يجب ألا تعيق إحياء مجد تاريخى هو كل ما يزهو به أهل سائر أقطار العالم »(١) .

---

(١) محمود كامل بمجلة « الجامعة » ، يوليو عام ١٩٤٥ و « العمل لمصر : بعث دولة وإحياء مجد » ١٩٤٥ ص ١١٠ — ١١١ .

الفصل الخامس

القاهرة مركز الاتجاهات الاتحادية فى الشرق العربى

فى ٢٢ من مارس ١٩٤٥ وقع فى القاهرة ميثاق جامعة الدول العربية بين سوريا والأردن والعراق والعربية السعودية ولبنان ومصر واليمن.

وفى ١١ من مايو عام ١٩٤٥ دخل ميثاق جامعة الدول العربية فى دور التنفيذ وهو الميثاق الذى نصت مادته الأولى على أن :

« تتألف جامعة الدول العربية من الدول المستقلة الموقعة على هذا الميثاق ولكل دولة عربية مستقلة الحق فى أن تنضم إلى الجامعة ، فإذا رغبت فى الانضمام قدمت طلباً بذلك » .

ونصت المادة الخامسة منه على أنه :

« لا يجوز الالتجاء إلى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة ، فإذا نشأ خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة أو سيادتها ، أو سلامة أراضيها ولجأ المتنازعون إلى المجلس لفض هذا الخلاف كان قراره عندئذ نافذاً وملزماً » .

ونصت المادة الثامنة منه على أن :

« تحترم كل دولة من الدول المشتركة فى الجامعة نظام الحكم القائم فى دول الجامعة الأخرى وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول وتتعهد بألا تقوم بعمل يرمى إلى تغيير ذلك النظام فيها » .

ونصت المادة التاسعة منه على أن :

« لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها فى تعاون أوثق ، وروابط أقوى مما نص عليه فى هذا الميثاق ، أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض » .

ونصت المادة العاشرة منه على أن :

« تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية ولمجلس الجامعة أن يجتمع فى أى مكان آخر يعينه » .

وقد قررت الدول الموقعة على هذا الميثاق ، فى ملحق خاص بفلسطين ، أنه :

« منذ نهاية الحرب العظمى الماضية ، سقطت عن البلاد العربية المنسلخة من الدولة العثمانية ومنها فلسطين ولاية تلك الدولة وأصبحت مستقلة بنفسها غير تابعة لأية دولة أخرى ، وأعلنت معاهدة لوزان أن أمرها لأصحاب الشأن فيها ، وإذا لم تكن قد مكنت من تولى أمورها فإن ميثاق العصبة فى سنة ١٩١٩ لم يقرر النظام الذى وضعه لها إلا على أساس الاعتراف باستقلالها ، فوجودها واستقلالها الدولى من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه ، كما أنه لا شك فى استقلال البلاد العربية الأخرى ، وإذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة فلا يسوغ أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها فى أعمال مجلس الجامعة ، ولذلك ترى الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية أنه نظراً لظروف فلسطين الخاصة وإلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا يتولى

مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربى من فلسطين للاشتراك فى أعماله » .

كما قررت الدول الموقعة فى ملحق آخر خاص بالبلاد العربية غير المشتركة فى مجلس الجامعة أنه « نظراً لأن الدول المشتركة فى الجامعة ستباشر فى مجلسها وفى لجانها شئوناً يعود خيرها وأثرها على العالم العربى كله ، ولأن أمانى البلاد العربية غير المشتركة فى المجلس ينبغى له أن يرعاها وأن يعمل على تحقيقها ، فإن الدول الموقعة يعنيها بوجه خاص أن توصى مجلس الجامعة ، عند النظر فى إشراك تلك البلاد فى اللجان المشار إليها فى الميثاق ، بأن يذهب فى التعاون معها إلى أبعد مدى مستطاع ، وفيما عدا ذلك بألا يدخر جهداً لتعرف حاجاتها وتفهم أمانيها وآمالها ، وبأن يعمل بعد ذلك على إصلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيئه الوسائل من أسباب » .

وفى ٢٧ من نوفمبر عام ١٩٤٥ أقر مجلس الجامعة المعاهدة الثقافية بين الدول الموقعة على الميثاق .

وفى ١٥ من مايو ١٩٤٨ ، وبعد أن اضطربت الأحوال فى فلسطين عقب تخلى بريطانيا عن التزاماتها وإزاء الأعمال العدوانية التى اجترأت عليها العصابات الصهيونية اتخذت دول الجامعة إجراء عربياً جماعياً لرد هذا العدوان على الأرض العربية .

وفى ١٧ من يونيو عام ١٩٥٠ وقع مندوبو سورية والمملكة العربية السعودية ولبنان ومصر والمملكة المتوكلية اليمنية معاهدة «الدفاع المشترك

والتعاون الاقتصادى » بين دول الجامعة العربية وهى التى وقعتها العراق فى ٢ من فبراير ١٩٥١ والتى تنص المادة الثانية منها على أن :

« تعتبر الدول المتعاقدة كل اعتداء مسلح يقع على أية دولة أو أكثر منها أو على قواتها اعتداء عليها جميعاً ، ولذلك فإنها ، عملا بحق الدفاع الشرعى الفردى والجماعى عن كيانها ، تلتزم بأن تبادر إلى معونة الدولة أو الدول المعتدى عليها ، وبأن تتخذ على الفور منفردة ومجتمعة ، التدابير وتستخدم جميع ما لديها من وسائل بما فى ذلك استخدام القوة المسلحة لرد الاعتداء ولإعادة الأمن والسلام إلى نصابهما ».

وقد عنيت جامعة الدول العربية ، إلى جانب عنايتها بربط الدول الأعضاء بهذه المعاهدات مختلفة الأهداف ، بالأقطار العربية الأخرى التى لم تستكمل استقلالها والتى بالتالى ، وطبقاً للمادة الأولى من ميثاق الجامعة ، لا يمكن أن تكون عضواً فى الجامعة .

ويكفى فى هذا البحث أن نكتفى بالإشارة إلى ما فعلته فى سبيل استقلال دول شمال أفريقيا العربية .

ففى ٢٨ من سبتمبر ١٩٤٥ من نفس العام وجه الأمين العام باسم الجامعة مذكرة إلى وزراء خارجية الدول الكبرى جاء فيها :

« ليبيا بلد عربى تحده تونس وبلاد المغرب غرباً ، ومصر شرقاً ، والصحراء الكبرى جنوباً ، ويقطن هذه البلاد منذ قرون قوم من أصل عربى يتكلمون لغة واحدة ويتبعون تقاليد وعادات واحدة ويتدينون بدين واحد »

وفى مارس عام ١٩٤٧ وجه الأمين العام إلى الشعب الليبى وهيئاته السياسية النداء التالى :

« إن قضيتكم ولا ريب من القضايا العربية التى نوليها اهتماماً منذ ثلاثين سنة ونرجو لها النجاح . وإن شعبكم العربى فى مقدمة الشعوب التى ناضلت وجاهدت وضحت بكثير من خير أبنائها فى سبيل الحرية والاستقلال .

وإن هذا الظرف لمن أنسب الأوقات لكى تجنوا ثمار أعمالكم وتظفروا بحريتكم ، فقد أزال الله عنكم كابوس الظلم والاستعمار ، وهيئت لكم فرصة التحرر فاغتنموها » .

وفى مارس عام ١٩٤٧ أوفدت الأمانة العامة للجامعة أحد المعنيين بالشئون العربية إلى مقر الأمم المتحدة فى « ليك سكسيس » بالولايات المتحدة الأمريكية لاستخدام ما يمكن استخدامه من وسائل الإعلام لعرض قضية اللاجئين العرب الفلسطينيين على الضمير العالمى ، وقد قدم عقب عودته تقريراً عن مهمته إلى الأمانة العامة تضمن ما تبينه من أوجه النقص فى الدعاية للدول العربية والإعلام عن عدالة قضاياها ، وجاء فى هذا التقرير :

« أقترح على جامعة الدول العربية أن تعمل بالتعاون مع الهيئات غير الحكومية على إعطاء طابع ,, دولى ،، ، فى نطاق الدول العربية ، للجمعيات الاقتصادية والاجتماعية وما يماثل هذه الجمعيات فى سائر الدول العربية ، فإذا ما استكملت هذه الهيئات غير الحكومية طابعها

„ الدولى‟، أى أن يمتد نشاطها إلى مجموعة دول مختلفة، وإذا ما نسقت صلاتها بما يماثلها من جمعيات فى غير الدول العربية ، فإنها تستطيع أن تعتمد كهيئات استشارية لدى المجلس الاقتصادى والاجتماعى .

« وإنى لأومن بأن الدول العربية تستطيع أن تسمع صوتها عالياً بواسطة هيئاتها غير الحكومية، إذا ما اعتمدت كهيئات استشارية ، إلى جانب أصوات وفود الدول العربية فى الأمم المتحدة ، بل إن هذه الهيئات غير الحكومية تستطيع بتحريرها من القيود الحكومية ، أن تحقق للعرب ، عن طريق لجان المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، مصالح اقتصادية واجتماعية قد لا يتسع وقت الساسة والدبلوماسيين ورجال القانون من أعضاء هذه الوفود لتحقيقها، أو قد تعوزهم الخبرة الخاصة فى تفاصيل المسائل الاقتصادية والاجتماعية عن تحقيقها عند مناقشتها أمام الأمم المتحدة، وهى خبرة لا شك فى توفرها لدى الهيئات غير الحكومية المتخصصة فى نوع معين من النشاط الاقتصادى والاجتماعى»(١) .

وقد رأى أحد كبار رجال القانون الدولى الفرنسيين عقب توقيع ميثاق الجامعة والعمل به أن هذه الجامعة جماعة دولية تضم دولا ذات سيادة وأنها ذات شخصية قانونية ظاهرية سواء من وجهة نظر القانون الدولى

---

(١) محمود كامل: تقرير عن المهمة التى ندبته لها جامعة الدول العربية فى الجزء الثانى للدورة الثالثة للجمعية العامة للأمم المتحدة التى انعقدت فى ليك ساكسيس فى خلال شهرى أبريل ومايو سنة ١٩٤٩ وقدم هذا التقرير إلى الأمين العام للجامعة فى ٦ من مارس سنة ١٩٥٠ .

« الفيدرالى » أو القانون الدولى العام ، وأنها إذن أكثر من مجرد تحالف ولكن أقل من دول « كونفيديرالية » فهى تحالف منظم (١) .

وفى ٥ من سبتمبر ١٩٥٠ صدر الدستور السورى الذى جاء فى مقدمته :

« نحن ممثلى الشعب السورى العربى المجتمعين فى جمعية تأسيسية بإرادة الله ورغبة الشعب الحرة ، نعلن أننا وضعنا هذا الدستور لتحقيق الأهداف المقدسة التالية ، ونعلن أن شعبنا الذى هو جزء من الأمة العربية بتاريخه وحاضره ومستقبله ، يتطلع إلى اليوم الذى تجتمع فيه أمتنا العربية فى دولة واحدة ، وسيعمل جاهداً على تحقيق هذه الأمنية المقدسة فى ظل الاستقلال والحرية » .

ونصت مادته الأولى على أن :

« . . . .

٣ — والشعب السورى جزء من الأمة العربية » .

وفى أول يناير ١٩٥٢ صدر دستور المملكة الأردنية الهاشمية الذى نصت مادته الأولى على أن :

« الشعب الأردنى جزء من الأمة العربية » .

وفى ٢ من أبريل عام ١٩٥٢ وجه ممثلو العراق والمملكة العربية السعودية ومصر واليمن — والدول الأربع أعضاء فى الجامعة — إلى رئيس

---

(١) Michel Mouskeli, La Ligue des Etats Arabes Rev. Génér. de Droit Inter. Public. باريس ، ١٩٤٦ ، ص ١٥٨ .

مجلس الأمن ، خطابات ذكر كل منهم فيها أنه تلقى من حكومته تعليمات بلفت نظر مجلس الأمن طبقاً للفقرة الأولى من المادة ٣٥ من ميثاق الأمم المتحدة ، إلى خطورة الحالة فى تونس ، وإلى أن رئيس مجلس الوزراء التونسى قد وجه إلى رئيس مجلس الأمن خطاباً فى هذا الشأن بتاريخ ١٢ من يناير عام ١٩٥٢ ، وأن الرئيس التونسى وبعض زملائه الوزراء قد قبض عليهم وتفاقمت الحالة فى القطر العربى ، كما ذكر كل من هؤلاء الممثلين أن رأى حكومته أن الموقف يهدد الأمن والسلم الدولى بالخطر مما ينطبق تحت نص المادة ٣٤ من الميثاق ، وطلب كل منهم أن يدعى الوفد الذى يمثله للاشتراك فى مناقشات هذا الموضوع طبقاً للمادة ٣٧ من لائحة إجراءات مجلس الأمن .

وقد عرضت المسالة التونسية على مجلس الأمن بجلسات ٤ و ١٠ و ١٤ من أبريل عام ١٩٥٢ .

وقد احتضنت دول الجامعة العربية قضية مراكش وتونس أمام الأمم المتحدة فى خريف عام ١٩٥٣ .

وقد سجلت محاضر الأمم المتحدة تكتل الدول العربية فى سبيل الدفاع عن استقلال الأقطار العربية ، فللدفاع عن استقلال مراكش شهدت جلسة اللجنة الأولى فى ١٣ من ديسمبر ١٩٥٢ دفاع مندوبى مصر ولبنان[1] وجلسات ١٥ ، ١٦ ، ١٩ من ديسمبر دفاع مندوب العراق ، وجلسة

(١) عبد الحميد خالد The Question of Morocco before the U.N. المجلة المصرية للقانون الدولى ، ١٩٥٤ ، ص ٤١ .

١٩ من ديسمبر دفاع مندوبى العراق واليمن وجلسة ٨ من أكتوبر ١٩٥٣ دفاع مندوبى مصر وسوريا وجلسة ١٣ من أكتوبر دفاع مندوب العربية السعودية وجلسة ١٥ من أكتوبر دفاع مندوب لبنان، كما وجه مندوبو مصر والعربية السعودية والعراق ولبنان وسوريا واليمن فى ٣٠ من يناير ١٩٥٢ خطاباً إلى رئيس مجلس الأمن دفاعاً عن استقلال تونس، كما عاد مندوبو مصر والعراق والعربية السعودية واليمن فى ٢ من أبريل عامئذ ووجهوا إلى رئيس مجلس الأمن خطاباً آخر فى نفس الشأن ، ووقف مندوب مصر أمام اللجنة الأولى بجلسة ٦ من ديسمبر ١٩٥٢ يدافع عن استقلال تونس دفاعاً حارّاً، كما سمعت هذه اللجنة بجلسة ١١ من ديسمبر عامئذ دفاع مندوب العراق ، وسمعت بجلسة ٢١ من أكتوبر ١٩٥٣ دفاع مندوب لبنان وبجلسة ٢٢ من أكتوبر دفاع مندوب العربية السعودية وبجلسة ١١ من نوفمبر دفاع مندوب العراق .

وقد انضمت دول شمال إفريقيا العربية بعد استقلالها إلى عضوية الجامعة ، فانضمت المملكة الليبية فى ٢٨ من مارس ١٩٥٣ وانضمت تونس والمغرب فى أول أكتوبر ١٩٥٦ وقبلت « الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية » فى ٤ من سبتمبر ١٩٥٩ كعضو مراقب ثم انضمت عقب إعلان استقلالها عام ١٩٦٣ .

وفى ١٦ من يناير ١٩٥٦ أعلن مشروع الدستور المصرى الذى نص فى مقدمته :

« نحن الشعب المصرى : الذى يشعر بوجوده متفاعلا فى الكيان العربى

الكبير ويقدر مسئولياته والتزاماته حيال النضال العربى المشترك لعزة الأمة العربية ومجدها » .

وقد قرر الرئيس جمال عبد الناصر فى الخطاب الذى قدم به مشروع هذا الدستور :

« إننا عضو فى الكيان العربى الكبير وهذا الشعب يشعر بوجوده متفاعلا فى الكيان العربى ، ويشعر أيضاً أن ما يحيق بأى بلد عربى لابد أن يؤثر علينا ، ولقد أرادوا فى الماضى أن يفرقونا وأرادوا فى الماضى أن يقطعوا أوصالنا وأن يزجوا بيننا قوميات أخرى ، ولكنا اليوم قد تنبهنا وسنأخذ من الماضى عظة وعبرة ، لقد انتهت الحرب العالمية الأولى فماذا كانت النتيجة ؟ لقد انقسم العرب وقطعت أوصالهم ، ووزعوا كغنائم وأسلاب ، ولكن العرب كافحوا وكانوا يتفاعلون فى كفاحهم فكانت مصر تتفاعل مع العروبة جمعاء من أجل تحقيق الحرية بين ربوع العالم العربى كله . . . فنحن اليوم حينما نعلن أننا نتفاعل مع الشعوب العربية ، ونعلن أننا جزء من الكيان العربى ، نعلن هذا من أجل مصلحتنا ومن أجل مصلحة العالم العربى كله .

إن الكيان العربى يمتد من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، كلنا شعب واحد . . . نكافح جميعاً متحدين متكاتفين . . . من أجل حقنا فى الحرية ومن أجل حقنا فى الحياة ، نكافح جميعاً ضد الاستعمار وضد أعوان الاستعمار .

نحن نعلن عروبتنا الحقيقية ونعلن تماسكنا مع العرب جميعاً حتى

لا يتكور ما مضى . وحتى لا يتكرر ما فات . . . لقد ضاعت قطعة من أرضنا ، لقد محيت قومية العروبة فى فلسطين . . لأننا انخدعنا ولأننا تبعنا الاستعمار وتبعنا أعوان الاستعمار ، نعلن أننا نتكاتف مع العرب جميعاً من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى من أجل الحرية ومن أجل الاستقلال ومن أجل الحق فى الحياة .

نعلن هذا ونعلن أننا جميعاً نتضامن من أجل الكفاح عن حريتنا ، ونتضامن من أجل الكفاح عن استقلالنا ، ونتضامن جميعاً من أجل الدفاع عن حقنا فى الحياة » .

ونصت المادة الأولى من هذا الدستور على أن :

« مصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة وهى جمهورية ديموقراطية والشعب المصرى جزء من الأمة العربية » .

وسرعان ما أثبتت الأحداث اللاحقة لإعلان مشروع الدستور المصرى فى عام ١٩٥٦ نضوج فكرة العروبة السياسية ، واتجهت آمال الشعوب العربية إلى القاهرة متعلقة بهدف تحقيق الوحدة العربية ، واتخذت طائفة من المعاهدات والاتفاقات طابعاً « كونفيديرالياً » بحتاً .

فى ٢٧ من نوفبر ١٩٥٧ وقعت جامعة الدول العربية اتفاقاً دولياً مع هيئة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة « يونيسكو » .

وفى ٢٦ من مايو ١٩٥٨ وقعت اتفاقاً آخر مع هيئة العمل الدولية .

وفى عام ١٩٥٩ وقعت اتفاقاً ثالثاً مع هيئة التغذية والزراعة — والهيئات الثلاث من الوكالات المتخصصة التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى

أحد أجهزة الأمم المتحدة الرئيسية — وقد اعترف للجامعة بالحصانات الدبلوماسية بوثائق أودعت من المملكة الأردنية الهاشمية ومصر والعربية السعودية والعراق على التوالى فى ديسمبر ١٩٥٣ ومارس وأبريل ١٩٥٤ وفبراير ١٩٥٥ .

كما أن للجامعة حق التمثيل الخارجى بواسطة مكاتبها التى أنشئ أولها فى مايو ١٩٥٣ ، فى نيويورك طبقاً لقرار مجلس الجامعة .

ولا شك أن هذه المدة بين توقيع ميثاق الجامعة فى ٢٢ من مارس ١٩٤٥ إلى أوائل عام ١٩٥٨ قد أضفت على الجامعة مقومات الاتحاد « الكونفيديرالى» ، ففى الاتحاد « الكونفيديرالى » يكون عدد الدول المشتركة عادة أكبر عدداً من دول الاتحاد « الفيديرالى » وشكل هذا الاتحاد وكثافته يختلفان بحسب الأحوال ، فطابع الاتحاد يتغلغل أحياناً — على الأقل فى الواقع — فى النشاط الداخلى للدول المشتركة فيه ، والاتفاق فيه يتم على أساس الاعتراف بعدم المساس بشخصية وسيادة الدول الأعضاء ، فالبعض يذهب إلى أن الاتحاد « الكونفيديرالى » ليس إلا علاقة قانونية دون شخصية قانونية وأنه يعمل لحساب الدول الأعضاء وبالنيابة عنها ، ويذهب البعض الآخر إلى أنه له شخصية خاصة ولكنها تختلف عن شخصية « الدولة » فهذا الاتحاد ليس له رعايا ولا يمارس مباشرة سلطة عامة على الموظفين العامين والمواطنين فى الدول الأعضاء . . . وأنه عادة لا يملك إلا هيئة أو جهازاً عبارة عن مؤتمر سياسى تنفذ قراراته بواسطة حكومات الدول المتحدة« كونفيديرالياً » وهذه الدول تحتفظ

بسيادتها الداخلية وحتى الخارجية فى كل ما لم ينص عليه صراحة فى ميثاق الاتحاد . . وبوجه عام تحتفظ الدول بجميع الحقوق التى لا تتنازل عنها بنص خاص فى ميثاق الاتحاد الكونفيديرالى (١).

ويكفى هذا — على ضوء ما سبق أن أشرنا إليه من تطور شخصية جامعة الدول واختصاصاتها الدولية — للتدليل على أنها — من وجهة النظر العلمية — « اتحاد كونفيديرالى » للدول الأعضاء .

* * *

الجمهورية العربية المتحدة

وفى أول فبراير ١٩٥٨ اجتمع فى القاهرة رئيسا جمهوريتى مصر وسورية وممثلو الجمهوريتين وأصدروا البيان التاريخى الذى قرروا فيه أنهم :

« انتهوا إلى أن هذه الوحدة التى هى ثمرة القومية العربية هى طريق العرب إلى الحرية والسيادة ، وسبيل من سبل الإنسانية للتعاون والسلام ، ولذلك فإن واجبهم أن يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الأمانى ، إلى حيز التنفيذ ، وفى عزم ثابت وإصرار قوى ، ثم خلص المجتمعون من هذا كله إلى أن عناصر قيام الوحدة بين الجمهوريتين السورية والمصرية وأسباب نجاحها قد توافرت بعد أن جمع بينهما فى الحقبة الأخيرة كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحاً وأكد أنها حركة بناء وتحرير وعقيدة تعاون وسلام .

(١) « سيل » ، نفس المرجع ، ص ١٩٠ .

لذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام ، وإيمانهم الكامل ، وثقتهم العميقة ، فى وجوب توحيد سورية ومصر فى دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة .

كما يعلنون اتفاقهم الإجماعى على أن يكون نظام الحكم فى الجمهورية العربية ديمقراطياً رئاسياً ، يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة يعاونه وزراء يعينهم ويكونون مسئولين أمامه ، كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعى واحد ، ويكون لهذه الجمهورية علم واحد ، يظل شعباً واحداً وجيشاً واحداً ، فى وحدة يتساوى فيها أبناؤها فى الحقوق والواجبات ويدعون جميعاً لحمايتها بالأنفس والمهج والأرواح ، ويتسابقون لتثبيت عزتها وتأكيد منعتها . وسيتقدم كل من فخامة الرئيسين شكرى القوتلى وجمال عبد الناصر ببيان إلى الشعب يلقى أمام مجلس النواب السورى ومجلس الأمة المصرى فى يوم الأربعاء ١٦ من رجب سنة ١٣٧٧ الموافق ٥ من فبراير سنة ١٩٥٨ يبسطان فيه ما انتهى إليه هذا الاجتماع من قرارات ويشرحان أسس الوحدة التى تقوم عليها دولة العرب الفتية .

كما سيدعى الشعب فى مصر وسورية إلى استفتاء خلال ثلاثين يوماً على أسس الوحدة وشخص رئيس الجمهورية .

والمجتمعون إذ يعلنون قراراتهم هذه يحسون بأعمق السعادة وأجمل ألوان الفخر ، إذ شاركوا فى الخطوة الإيجابية فى طريق وحدة العرب حقبة بعد حقبه وجيلا بعد جيل ، والمجتمعون إذ يقررون وحدة البلدين يعلنون أن وحدتهم تتوخى جمع شمل العرب ، ويؤكدون أن باب الوحدة مفتوح

لكل بلد عربى يريد أن يشترك معهم فى وحدة أو اتحاد يدفع عن العرب الأذى والسوء ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيانها ، والله نسأل أن يكلأ هذه الخطوة وما يتلوها من خطوات بعين رعايته الساهرة ، وبفضل عنايته السابغة ، وأن يكتب للعرب فى ظل الوحدة العزة والسلام » .

وفى يوم الأربعاء ٥ من فبراير ١٩٥٨ وصف رئيس جمهورية مصر هذه الدولة الجديدة التى قامت فى هذا الشرق فى خطابه أمام مجلس الأمة بأنها :

« ليست دخيلة فيه ولا غاصبة ، ليست عادية عليه ولا مستعدية . . دولة تحمى ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تقوى ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، لا تتحزب ولا تتعصب ، لا تنحرف ولا تنحاز ، تؤكد العدل وتدعم السلام ، توفر الرخاء لها ولمن حولها وللبشر جميعاً بقدر ما تتحمل وتطيق » .

وبعد ذلك أصدر مجلس الأمة المصرى قراره الذى نص على :

« إن مجلس الأمة ليرى فى إقامة الدولة العربية المتحدة إيذاناً بفجر جديد ، تتضافر فيه كل الجهود والقوى فى سورية ومصر فى سبيل واحد ونحو هدف واحد وإيمان مشترك لتحقيق مجد العروبة » .

وفى نفس اليوم أصدر مجلس النواب السورى قراره الذى نص على :

« إن أعضاء مجلس النواب بموافقتهم وتأييدهم لما تم إنما يعبرون عن إرادة الشعب العربى فى الإقليم السورى ويؤدون الأمانة ويوفون بالعهد حين أقسموا اليمين الدستورية على العمل لتحقيق وحدة الأقطار العربية ».

وفى يوم ٢١ من فبراير ١٩٥٨ أجرى الاستفتاء على الوحدة بين الجمهوريتين العربيتين وعلى انتخاب رئيسهما وأعلنت نتيجة هذا الاستفتاء رسميًّا فى اليوم التالى .

الدول العربية المتحدة

وفى يوم ٨ من مارس ١٩٥٨ بالقاهرة وقعت الجمهورية العربية المتحدة والمملكة المتوكلية اليمنية ميثاق « الدول العربية المتحدة » الذى نص على أن :

- ينشأ اتحاد يسمى الدول العربية المتحدة يتكون من الجمهورية العربية المتحدة والمملكة المتوكلية اليمنية والدول العربية التى تقبل الانضمام إلى هذا الاتحاد .
- تحتفظ كل دولة بشخصيتها الدولية وبنظام الحكم الخاص بها .
- مواطنو الاتحاد متساوون فى الحقوق والواجبات العامة .
- لكل مواطن فى الاتحاد حق العمل وتولى الوظائف العامة فى البلاد المتحدة دون تفرقة وفى حدود القانون .
- حرية التنقل فى الاتحاد مكفولة فى حدود القانون .
- تتبع الدول الأعضاء السياسة الخارجية الموحدة التى يضعها الاتحاد .
- يتولى التمثيل السياسى والقنصلى للاتحاد فى الخارج هيئة واحدة فى الأحوال التى يقرر فيها الاتحاد ذلك .

● يكون للاتحاد قوات مسلحة موحدة .

● يشرف على شئون الاتحاد مجلس يسمى المجلس الأعلى يشكل من رؤساء الدول الأعضاء .

● يعاون المجلس الأعلى فى مباشرة سلطاته مجلس يسمى مجلس الاتحاد .

● يختص المجلس الأعلى برسم السياسة العليا للاتحاد فى المسائل السياسية والدفاعية والاقتصادية والثقافية وإصدار القوانين اللازمة فى هذا الشأن وهو المرجع الأعلى فى تحديد الاختصاصات ، وتصدر قرارات المجلس بالإجماع .

● يصدر المجلس الأعلى القوانين الاتحادية التى يختص بإصدارها وفقاً لأحكام هذا الميثاق وذلك بعد موافقة السلطات المختصة فى كل دولة .

● يعين المجلس الأعلى القائد العام للقوات المسلحة للاتحاد .

الاتحاد العربى : العراق — الأردن

وفى ١٤ من فبراير ١٩٥٨ — اهتداء بميثاق القاهرة الخاص بإعلان الجمهورية العربية المتحدة — أعلن إنشاء الاتحاد العربى بين العراق والأردن ونص ميثاقه على :

● إنشاء اتحاد عربى بين المملكتين باسم الاتحاد العربى اعتباراً من يوم الجمعة ١٤ فبراير ويكون مفتوحاً للدول العربية الأخرى التى ترغب فى الانضمام إليه .

● تحتفظ كل من الدولتين بشخصيتهما الدولية ونظام الحكم القائم فيهما .

● تكون المعاهدات والمواثيق والاتفاقيات الدولية التى سبق الارتباط بها قبل عقد اتفاق الاتحاد مرعية بالنسبة للدولة التى عقدتها ، أما الاتفاقات الدولية التى ستعقد فى المستقبل فتكون من اختصاص الاتحاد .

● تنفذ إجراءات الوحدة بين البلدين اعتباراً من تاريخ الإعلان الرسمى للاتحاد وذلك فى السياسة الخارجية والتمثيل الدبلوماسى وتوحيد الجيشين فى جيش عربى واحد تحت قيادة واحدة و إزالة الحواجز الجمركية.

. . . .

. . . .

● يتولى شئون الاتحاد حكومة اتحادية تنبثق عن مجلس تشريعى واحد .

● يكون ملك العراق رئيساً لحكومة الاتحاد .

وقد أرسل الرئيس جمال عبد الناصر عقب إعلان هذا الاتحاد برقية جاء فيها :

« إن الأيام التى تعيشها الأمة العربية الآن أيام خالدة مجيدة وما من شك فى أن الأحداث التى عاشتها أمتنا فى الفترة الأخيرة تبشر بأن فجر الوحدة الذى أشرق على كل الآفاق العربية هو مطلع تاريخ جديد للأمة العربية المناضلة » .

الدورة الأولى لمجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية بالقاهرة فى يناير ١٩٦٤

وإجابة لدعوة وجهها الرئيس جمال عبد الناصر عقد بالقاهرة فى المدة من ١٣ إلى ١٦ من يناير ١٩٦٤ مجلس يمثل ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية ، وقد أصدر المجلس بيانه التاريخى الآتى :

« إن مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية فى دورته الأولى المنعقدة بمقر الجامعة فى القاهرة منذ الثالث عشر حتى السادس عشر من يناير (كانون الثانى) عام ١٩٦٤ ، بناء على اقتراح السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ،

وقد تدارس التهديدات وأعمال العدوان المتصلة التى مارستها إسرائيل منذ إخراجها الشعب العربى الفلسطينى من وطنه ، وقيامها قوة احتلال استعمارية لأراضيه ، تمارس التمييز العنصرى ضد الأقلية العربية ، وتتخذ سياسة العدوان والأمر الواقع قاعدة لها ، وتصر على التنكر لقرارات الأمم المتحدة المؤكدة لحق هذا الشعب الطبيعى فى العودة إلى وطنه ، وتستهين بالإدانات المتكررة التى سجلتها عليها أجهزة المنظمة العالمية ،

وبعد أن بحث ما أوشكت عليه إسرائيل من القيام بعدوان خطير جديد على المياه العربية بتحويل مجرى نهر الأردن والإضرار البالغ بحقوق العرب المنتفعين بهذه المياه ، استهدافاً منها لتحقيق المطامع الصهيونية التوسعية بجلب المزيد من قوى العدوان ، وإقامة مراكز تهديد

أخرى لأ من البلاد العربية وتقدمها وسلام العالم ،

وقياماً بواجب الدفاع المشروع ، وإيماناً بحق الشعب العربى الفلسطينى المقدس فى تقرير مصيره والتحرر من الاستعمار الصهيونى لوطنه ، وبأن التضامن العربى هو السبيل إلى درء المطامع الاستعمارية ، وتحقيق المصالح العربية العادلة المشتركة ، ورفع مستوى العيش للسواد الأعظم وتنفيذ برامج الإنشاء والإعمار ،

قد اتخذ القرارات العملية اللازمة لاتقاء الخطر الصهيونى الماثل ، سواء فى الميدان الدفاعى أو الميدان الفنى ، أو ميدان تنظيم الشعب الفلسطينى وتمكينه من القيام بدوره فى تحرير وطنه وتقرير مصيره .

كما أسفرت اجتماعاته عن إجماع الملوك والرؤساء العرب على إنهاء الخلافات وتصفية الجو العربى من جميع الشوائب وإيقاف جميع حملات أجهزة الإعلام ، وتوثيق العلاقات بين الدول العربية الشقيقة ضماناً للتعاون البناء الجماعى ، ودرءاً للمطامع التوسعية العدوانية التى تهدد العرب جميعاً على السواء .

ورأى أن عقد مزيد من هذه الاجتماعات على أعلى المستويات أمر تقتضيه المصلحة العربية العليا . وقرر أن يجتمع الملوك والرؤساء مرة فى السنة على الأقل ، وأن يكون الاجتماع المقبل بالإسكندرية فى أغسطس (آب) عام ١٩٦٤ .

ويعلن الملوك والرؤساء العرب أن الأمة العربية تهيب بدول العالم وشعوبها التى تقدس حقوق الأفراد فى أوطانها ، والشعوب فى الانتفاع

بمواردها وتقرير مصائرها ، أن تكون خير عون لها فى دفع العدوان الإسرائيلى الجديد .

وهم يؤكدون أن العرب فى موقفهم الدفاعى العادل ، سينظمون علاقاتهم السياسية والاقتصادية بالدول ، على أساس مواقفها من كفاح العرب المشروع ضد المطامع الصهيونية فى العالم العربى .

ويأملون أن الدول الإفريقية والآسيوية التى آمنت بمبادئ باندونج وارتبطت بميثاق أديس أبابا ، وضحت بالكثير من محاربة الاستعمار ، وكافحت التمييز العنصرى ، وتعرضت ولا تزال تتعرض للأخطار والمطامع الاستعمارية الصهيونية وخاصة فى إفريقيا — هذه الدول جميعاً ستقدم صادق التأييد والعون للعرب فى نضالهم العادل .

كما يأملون تأييد جميع الدول الحرة المؤمنة بالسلام القائم على العدل .

كذلك يؤمنون بعدالة الكفاح العربى وواجب تأييده ضد الاستعمار فى الجنوب اليمنى المحتل وعمان وبعدالة الكفاح الوطنى فى أنجولا . وجنوب إفريقيا وكل مكان فى العالم . فقضايا الحرية والعدل وحدة لا تتجزأ ».

الوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق

وفى ٢٦ من مايو ١٩٦٤ أعلن الاتفاق الذى وقعه فى القاهرة الرئيسان جمال عبد الناصر عن الجمهورية العربية المتحدة وعبد السلام عارف عن الجمهورية العراقية والذى نصت مقدمته :

« إيماناً بوحدة الأمة العربية ، وحدة نابعة من وحدة اللغة والتاريخ ووحدة النضال والمصير العربى ،

وإدراكاً لزيف الفرقة المصطنعة التى تعكسها التقسيمات السياسية الحالية على الأرض العربية والتى فرضها الاستعمار وفق مصالحه فى الاستغلال والسيطرة ،

فإن الأمة العربية تجد نفسها متمسكة بوحدتها مع واقع التاريخ والتجربة .

ولقد تجسدت آمال الأمة العربية فى تجربة رائدة هى قيام الجمهورية العربية المتحدة لتضم سوريا ومصر لتثبت للعالم أجمع أن شعار الوحدة ليس أملا صعب المنال ولكنه حقيقة يمكن أن تثبت وجودها فى الواقع .

وتكاتفت عوامل الشر وتعاون الاستعمار والرجعية على تنفيذ جريمة الانفصال ، ولكن عبرة الانفصال خلفت وراءها تجربة غنية هى فى حد ذاتها درع يحمى الوحدة فى المستقبل ويزيد من التمسك بها .

واستمرت أعلام الوحدة مرفوعة تردد شعاراتها فى قلب كل عربى »

رغم المحاولات الطائشة لإعاقتها، وكانت اتفاقية ١٧ أبريل (نيسان) ١٩٦٣ لتحقيق الوحدة بين سوريا ومصر والعراق . ولكن انعدام النوايا الطيبة لدى البعض قضى أيضاً على هذه المحاولة » .

ونص الاتفاق على أن :

« يشكل مجلس رئاسة مشترك لكل من الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية من رئيس الجمهورية العربية المتحدة ورئيس الجمهورية العراقية وعدد من الأعضاء .

مقر مجلس الرئاسة المشترك مدينة القاهرة ويجوز دعوة المجلس للانعقاد فى جهة أخرى بناء على اتفاق الرئيسين .

يختص مجلس الرئاسة المشترك بما يلى :

(ا) دراسة وتنفيذ الخطوات اللازمة لإقامة الوحدة بين البلدين.

(ب) تخطيط وتنسيق سياسة البلدين فى المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وفى ميدان الإعلام .

(حـ) تحقيق الوحدة الفكرية بين شعبى الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية عن طريق التنظيمين الشعبيين فى البداية والعمل على توحيد التنظيمين فى المستقبل .

للمجلس أمانة عامة مقرها القاهرة . ويتولى إدارتها أمين عام بدرجة وزير .

* * *

ولم تقتصر عروبتنا – التى أصبحت أساساً لقانون دولى عربى على

تفصيل لا يتسع له هذا المقام — على النطاق العربى بل استقر التعاون بينها وبين فكرة التكتل الأفروأسيوى والتكتل الإفريقى ؛ فؤتمر باندونج الذى عقد فى أبريل عام ١٩٥٥ واشتركت فيه مصر والعراق والأردن ولبنان وليبيا والعربية السعودية والسودان وسوريا واليمن أصدر قرارات بتأييد قبول ليبيا عضواً فى الأمم المتحدة و بمكافحة الاستعمار وتأييد حق تونس ومراكش فى التحرر من السيطرة الفرنسية .

ومؤتمر الدار البيضاء الذى عقد فى يناير ١٩٦١ واشترك فيه رئيس الجمهورية العربية المتحدة وملك المغرب ورئيس وزراء الجزائر وضع الميثاق الإفريقى الذى تضمن عزم الموقعين عليه على تحرير الأراضى الإفريقية التى لا تزال تحت السيطرة الأجنبية .

ومؤتمر القمة الذى عقد فى سبتمبر ١٩٦١ ببلجراد واشتركت فيه من الدول العربية الإفريقية الجمهورية العربية المتحدة والجزائر والمغرب والسودان وتونس أصدر عدة قرارات خاصة بمكافحة الاستعمار وبحق الشعوب فى تقرير مصيرها وبالتنديد العنيف بالتفرقة العنصرية .

ومؤتمر القمة الذى عقد فى مايو ١٩٦٣ بأديس أبابا واشتركت فيه جميع الدول العربية الإفريقية أصدر عدة قرارات ساند فيها صراع الشعوب الإفريقية فى سبيل استقلالها وندد بكل أشكال الاستعمار وبرزت فيه الشخصية العربية كأصدق نصير للقيم الإنسانية الحرة فى العلاقات الدولية .

فهرس

صفحة

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤

شركة تنمية الصناعات الكيماوية (سيد)



إحدى شركات المؤسسة المصرية العامة للأدوية والكيماويات والمستلزمات الطبية

يتضاعف انتاجها ١٢٠ مرة
خلال سنوات ثورتنا الاشتراكية

نتيجة للنهضة الصناعية الاشتراكية وبتوجيه المؤسسة المصرية العامة للأدوية التى تهدف إلى توفير الدواء العربى لتغطية الاستهلاك المحلى

وها هى أرقامها الصاعدة تؤكد ازدهار نشاطها وتفوق انتاجها :

- رأس المال ١٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه
- عدد المجموعات الدوائية ٣١
- عدد العاملين ١٬٥٠٠ عامل
- إجمالى المبيعات ٢٬٣٨٧٬٠٠٠ جنيه
- مرتباتهم وأجورهم ٢٨٠٬٠٠٠ جنيه
- قيمة الانتاج ٢٬٨٣٩٬٠٠٠ جنيه
- عدد المستحضرات المنتجة ١٢٧
- ميزانية الأبحاث ٥٥٬٠٠٠ جنيه
- ميزانية الخدمات الاجتماعية ٣٥٬٠٠٠ جنيه

وتعمل الشركة على تخفيض أسعار مستحضراتها لتكون فى متناول جميع المواطنين ولترفع المستوى الصحى لأبناء الشعب

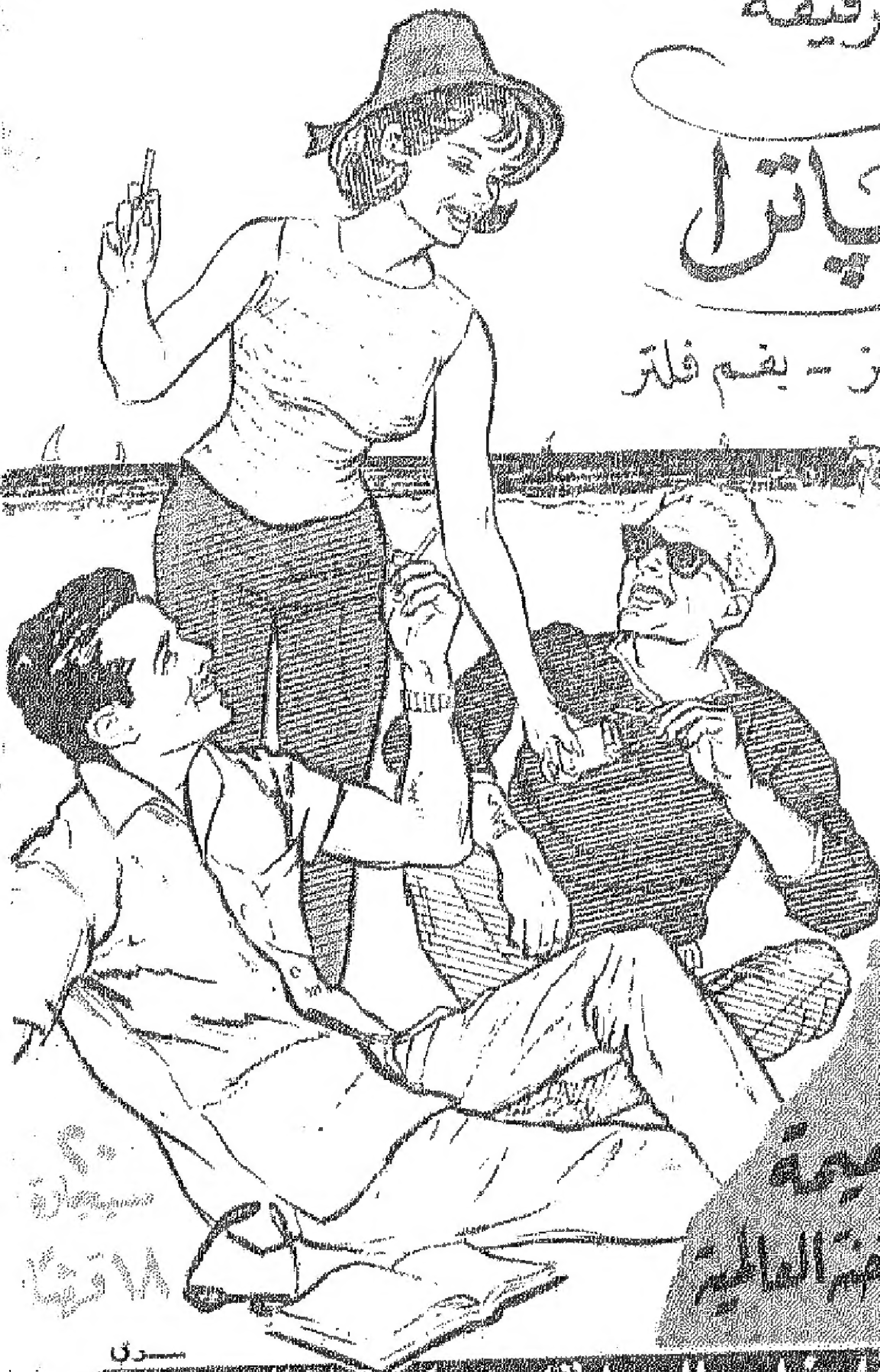
إدارة العلاقات العامة وقسم التصدير : ٢ ش شريف عمارة اللواء ت ٧٤٠١٥
المصانع : الطالبية بالهرم - بالجيزة تليفون ٨٩٤٩٦٩

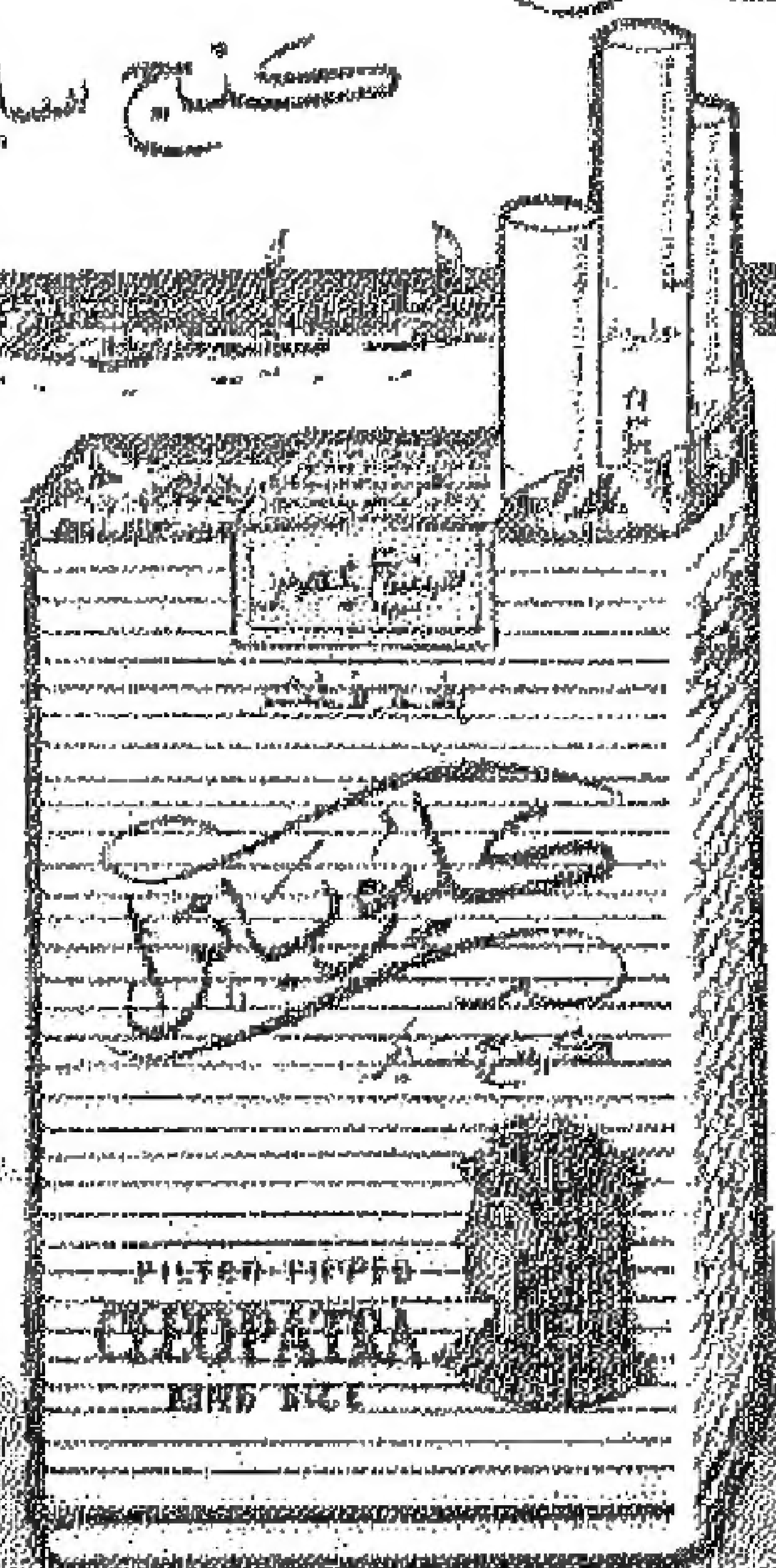
متعة الشاطئ تكتمل

بالسيجارة الرقيقة

كليوباترا

كنج سايز - بفم فلتر





سيجارة عربية صميمة

خليط من أجود الأدخنة العالمية

إنتاج الشركة الشرقية للدخان والسجاير "ايسترن كومباني"

الموزعون في البلاد العربية

- الكويت: السيد/ عبد العزيز سعود البابطين
- الإمارات المتصالحة / قطر: السادة/ يوسف حبيب وإخوانه
- البحرين: المؤسسة التجارية الشرقية
- العراق
- اليمن: شركة التبغ والكبريت الوطنية
- عدن والجنوب العربي: وكالة الأهرام التجارية
- غزة: الحاج علي ... سالم وأولاده
- المملكة العربية السعودية: الحاج عبد الوهاب محمد
- دول غرب افريقيا: فروع شركة النصر للتصدير والاستيراد في هذه الدول